



كلية اللغة العربية بأسيوط

المجلة العلمية

الرؤى والأحلام المقدسة

عصر الحروب الصليبية

إعداد

أ. د/ إمام الشافعي محمد حمودى

أستاذ مساعد التاريخ والحضارة الإسلامية

(العدد الثلاثون - الجزء الأول - يوليو ٢٠١١ م)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَلَمِّمًا

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين
سيدنا محمد النبي الهادي الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .
وبعد ،،،

فإن الرؤى والأحلام ظاهرة إنسانية ، تتلازم مع الإنسان من الميلاد حتى
الممات ، ولا دخل للإنسان فيها ، لذا فهو غير محاسب عما يراه في منامه ،
وأحياناً تكون هذه الرؤى صادقة ، فتقع في اليقظة كما شاهدها في المنام ، وتلك
أسمى مراتب الرؤى ، وأحياناً تكون كاذبة ، لا تخرج عن مجرد كونها أضغاث
أحلام أو حديث للنفس ، والرؤى والأحلام سواء كانت كاذبة ومخترعة ، أو
صادقة فإنها تحمل في الغالب طابع التنبؤ بالمستقبل .

قبل أن تندلع شرارة الحركة الصليبية ضد الشرق الإسلامي . كان سكان
الغرب الأوروبي - كغيرهم من البشر - لهم أحلامهم ورؤاهم ، وكانت هذه
الأحلام تسيطر على سلوك الكثيرين منهم ، بل يمكن القول بأن انتشار المسيحية
ذاته في أوروبا ، كان مبنياً على حلم ، وقد كثرت هذه الرؤى والأحلام وذاع
صيتها في كل أرجاء الغرب الأوروبي ؛ لأن أصحابها ادعوا أنهم قد شاهدوا فيها
السيد المسيح أو مريم العذراء ، أو أحد القديسين ، فاكتملت هذه الرؤى والأحلام
صفة القداسة ، فصارت هذه الرؤى والأحلام جزءاً من الوجدان الأوروبي ،
فرفعت درجة الحماسة الدينية ، والتي كانت بدورها من أهم دوافع الحركة
الصليبية .

وعندما انتقل أبناء الغرب الأوروبي إلى الشرق الإسلامي ، بأسلحتهم

وأمتعتهم ، لم ينسوا أن يحملوا معهم أحلامهم ورؤاهم المقدسة ؛ فكانت سلاحاً أخطر من أسلحتهم القتالية ، حيث كانوا يستخدمونها للعب بعواطف العامة والسذج منهم ، لدفعهم إلى الانخراط في سلك الحركة الصليبية الاستعمارية ، وظلت هذه الرؤى والأحلام المقدسة ملازمة للصليبيين طوال فترة وجودهم في الشرق الإسلامي والتي استمرت قرابة القرنين من الزمان .

كان الصليبيون إذا جابهتهم مشكلة ما ، في أى حملة من الحملات ، أو تهددتهم المخاطر ، تظهر الرؤى والأحلام المقدسة لتخرج الصليبيين من هذا المأزق ، أو تدفع عنهم ذاك الخطر ، وطالما كانت الحملة تسير أموراً بسهولة ويسر ، وتحقق أهدافها في هواده ، كانت تختفي هذه الأخبار عن الرؤى والأحلام المقدسة ، وهذه دليل كبير على أن هذه الرؤى والأحلام المقدسة كان يتم اختراعها ونسج خيوطها ، حتى صارت من المحركات الأساسية في سير الحركة الصليبية .

هذا وقد قامت هذه الدراسة بالبحث في أهم هذه الرؤى والأحلام المقدسة التي تخللت فترة الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وكذلك فترة الصراع الصليبي الإسلامي في بلاد الأندلس المفقود ، وذلك للتوافق والترابط في الدوافع والأهداف بين صليبي الشرق والغرب ، وكان المنهج الذي سارت عليه الدراسة هو ذكر هذه الرؤى والأحلام ، وبيان أثرها في الحركة الصليبية ، ومعالجتها معالجة تاريخية موضوعية ، بعيداً عن التعصب والاحيائية ، وبعيداً عن المجاذبات والمجادلات الدينية .

أخيراً أرجو من الله العليّ القدير أن يستفيد بهذا البحث كل من يقرأه ، وأن يكون بداية لقراءة جديدة للحركة الصليبية ، والتي مازالت جذورها تمتد حتى الآن ، وإن كانت في شكل مختلف . والله الموفق وهو من وراء القصد والسبيل .

مفهوم الرؤى والأحلام المقدسة

لعله من الأهمية بمكان قبل الحديث عن الرؤى والأحلام المقدسة عصر الحروب الصليبية ، أن نبين مفهوم هذه الرؤى والأحلام ، التي سيتوقف عليها الكثير مما تم خلال هذه الحروب من أحداث ، قد كان لهذه الرؤى والأحلام الأثر الكبير فيها .

أما عن مفهوم الرؤى ، فقد جاء في لسان العرب أن الرؤية النظر بالعين والقلب ... واسترأى الشيء : استدعى رؤيته ... والرؤيا : ما رأيته في منامك ، وأرأى الرجل : إذا كثرت رؤاه وهي أحلامه ، وجمع الرؤيا رؤى . وقد جاءت الرؤيا في البيضة وعليه فسر قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرْتَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ ^(١) الإسراء : آية ٦٠ .

فالرؤيا هي ما يراه الشخص في منامه ، والرؤية بالهاء إدراك المرء بحاسة البصر ، وتطلق على ما يدرك بالتخيل نحو أرى أن زيدا مسافر ، وعلى التفكير النظري نحو (إنى أرى ما لا ترون) وعلى الرأي وهو اعتقاد أحد النقيضين على غلبة الظن ^(٢) . فالرؤيا من الله تبشير أو تحذير ، فهي ذات مضمون يلقيه الله في قلب عبده ليكون على بصيرة من أمره في شيء أصابه أو سيصيبه رحمة منه عليه ، لذا لم يكذب ينسى الرائي من رؤياه شيئا ، وقلما يرى

(١) ابن منظور : لسان العرب . ط - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٧م . مادة رأى .

(٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري . تبويب وتصحيح / محمد فؤاد عبد الباقي . ط - دار المعرفة - بيروت . لم تذكر سنة الطبع ج ١٢ ص ٣٥٢ .

الإنسان رؤيا تحتوي مادتها على لغة وكلام ، وإنما الغالب أن النائم يرى صوراً لأحداث ووقائع ماضية أو مستقبلية ولهذا سميت رؤيا .^(١) والرؤيا الصادقة هي رؤيا الأنبياء ومن تبعهم من الصالحين ، وقد تقع لغيرهم وهي تقع في اليقظة على وفق ما وقعت في النوم .^(٢)

أما عن مفهوم الرؤى في الفكر المسيحي ، فهناك سفر الرؤيا أو " الحلم " والذي يشغل الفصل السابع من كتاب دانيال الذي تم تأليفه في نحو عام ١٨٥ ق.م^(٣) فالرؤيا apocalypse هي التي يرى فيها الإنسان كائناً أخيراً أو ما وراء التاريخ، وقد استعملت في ترجمة الكتاب المقدس إلى العربية لتسمية السفر الأخير من أسفار العهد الجديد ، علماً بأنه كشف لأسرار تتعلق بسير التاريخ وآخر الأزمنة ، وهو من وضع القديس يوحنا^(٤). وجاء في كتاب المحيط الجامع في الكتاب المقدس أن الرؤيا تعود إلى فعل رأي ، وهذه الرؤية لا تتم بالعين المجردة ، بل ترتفع إلى مستوى المخيلة في الرؤى المنحولة ، وإلى مستوى الإيمان في الكتب القانونية ، وكلها مطبوعة بالفن الجلياتي " جلا أي

(١) د / محمد بكر إسماعيل : تفسير الأحلام في ضوء الإسلام . ط - دار المنار - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٢ م . ص ٦ - ١٨ .

(٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري . ج ١٢ ص ٣٥٤ .

(٣) د / سهيل زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية - نشر ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية . ط / دار الفكر - دمشق - سوريا - لم تذكر سنة الطبع ج - ص ١٧ .

(٤) صبحي اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي . ط - دار المشرق - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٩٨ م . ص ٢٤٢ .

كشف " الذي ينطلق من الرموز والصور ليحمل وحيًا عن مصير البشرية . (١)

أما عن مفهوم الأحلام فجاء في لسان العرب أن الحلم هو الرؤيا ، والجمع أحلام ، يقال : حلم يحلم إذا رأى في المنام ، وتحلم إذا ادعى الرؤيا كاذباً والرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم في نومه من الأشياء ، ولكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن ، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والقيبح ومنه قوله تعالى: ﴿ أَصْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ ويستعمل كل واحد منهما موضع الآخر (٢). فالحلم هو ما يراه النائم من صور وأشخاص وتخيلات ويسمع أصواتاً يتبين بعضها ولا يتبين بعضها الآخر ثم يستيقظ من نومه فينسى منها شيئاً ويذكر شيئاً وقد لا يذكر منها إلا القليل ... أما أصغاث الأحلام فهي عبارة عن صور وأخيلة لا رابط لها ولا ضابط ولا تقع تحت المعقول ، يراها النائم فيقوم من نومه منزجاً خائفاً ، فهي أشبه بالوساوس الشيطانية والهواجس النفسية ، التي تقع للإنسان في اليقظة . (٣)

إن جميع ما يرى في المنام على قسمين : فقسم من الله تعالى وقسم من الشيطان لقول الرسول (ﷺ) : الرؤيا من الله والحلم من الشيطان " والمضاف إلى الله تعالى من ذلك هو الصالح ، وإن كان جميعه أي الصادق وغيرها خلقاً لله

(١) الخوري الفغالي : المحيط الجامع في الكتاب المقدس والشرق القديم . ط - المكتبة البولسية - بيروت - الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٩ م . ص ٥٩٨ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب . مادة حلم .

(٣) د / محمد بكر إسماعيل : تفسير الأحلام في ضوء الإسلام . ص ٦ - ٧ .

تعالى، وأن الكافرين وفساق المؤمنين قد يرون الرؤيا الصادقة^(١) . فقد وقعت الرؤيا الصادقة من بعض الكفار كما في رؤيا صاحبي السجن مع يوسف عليه السلام ، ورؤيا ملكهما وغير ذلك .^(٢)

أما عن مفهوم الأحلام في الفكر المسيحي فهي تعني بأن الله يظهر إرادته أو يكشف المستقبل عن طريق الحلم . وفي الواقع قد يدل غالباً تحليل روايات الرؤى في الحلم على أنها توافق توجيهاً جديداً للشخصية .^(٣)

إن الحركة الصليبية منذ بدايتها نتاج مجموعة من عوامل متشابكة ومعقدة إلى أقصى الحدود ، ومن ثم فإن أية محاولة لتفسيرها في ضوء عامل واحد أو مجموعة عوامل محددة ، فإن هذه المحاولة سيكون مآلها الفشل^(٤) . فقد كانت هناك أسباب عديدة للحركة الصليبية منها الديني وغير الديني ، منها الرغبة في التوسعات الاقتصادية عن طريق التجارة مع الشرق ، كذلك الرغبة من باباوات الكنيسة في توحيد جناحي الكنيسة في الشرق والغرب ، بالإضافة إلى الدوافع الشخصية كالحصول على الشهرة ، وحب المغامرة .^(٥)

إن الناس يحتاجون إلى سند عاطفي في مواجهة عدم الطمأنينة والمواساة

(١) ابن سيرين : تفسير الأحلام الكبير . ط - دار ابن خلدون - الإسكندرية - لم تذكر سنة الطبع . ص ٣ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري . ج ١٢ ص ٣٦٢ .

(٣) صبحي اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي . ص ١٩٤ .

(٤) د / قاسم عبده قاسم : الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية . ط - دار عين - القاهرة سنة ٢٠٠١ م . ص ١٣ .

(٥) Robert Duncan : The power of a pilgrimage to the holy land . Derw university . Madison, New jersey. 2001. P.42

عندما يواجهون الإخفاق ، فالدين يكون بمثابة مساعد عاطفي ضد الإخفاق والقلق والهزيمة التي تميز الحالة الإنسانية ، لكن بالنسبة للصراع الدموي الذي حدث بين الإسلام والمسيحية في الحركة الصليبية فإن هذه الحروب تعد مثلاً لكيفية استخدام الدين كعامل مدمر .^(١) إن العلامات التي ظهرت في السماء ، واكتشاف الآثار المقدسة ، والأطيان التي كانت تظهر لبعض الصليبيين ، والتي صاحبت الانتصارات التي حققها الصليبيون قد جعلتهم أكثر ميلاً إلى الاعتقاد في إمكان تحقيق المعجزات ، وكان الصليبيون يرون أن حملتهم الصليبية تتسم بطابع الإعجاز مثل أي حدث حربي ورد ذكره في العهد القديم - التوراة - ومن ناحية أخرى نظر الصليبيون إلى الحوادث الطبيعية غير المتوقعة على أنها حدث بفعل الخاية الإلهية .^(٢) فقد أكثر الصليبيون من الرؤى والأحلام المقدسة في عصر الحركة الصليبية وقد وصفت هذه الرؤى والأحلام بأنها " مقدسة " لأن معظم الذين ظهروا في الرؤى كانوا من القديسين^(٣) في غالب الأحوال ... وفي هذه الرؤى كان الله أو المسيح يغفهم أو ينصحبهم إما شخصياً أو عن طريق الوسيطاء

(١) د / محمد رجب بيومي : علم الاجتماع الديني . ط - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية - سنة ١٩٩٦ م . ص ٣٠٦ ، ٣٢٩ .

(٢) جوناثان ريلي سميث : الحملة الصليبية الأولى ، ترجمة د / محمد فتحي الشاعر . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٩ م . ص ١٨١ .

(٣) القديسون saints : مجموعة من المسيحيين المقدسين في الديانة المسيحية ، وكانت عبادة القديسين بين المسيحيين في العصور الوسطى المسيحية إحدى الجوانب الرئيسية في الدين ، وأقيمت على شرفهم هياكل ومزارات كثيرة ، كما شيدت الكثير من الكنائس على شرفهم أيضاً . د/ إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم . ط - مكتبة مدبولي - القاهرة - لم تذكر سنة الطبع . ج ٣ ص ٢١٢ .

من القديسين أو الموتى من الصليبيين الذين حسبما شاع الاعتقاد كانوا يشاركون في القتال بجانب الأحياء من حين لآخر.^(١) لكن كل هذه المعجزات والرؤى المقدسة تضاعلت مع كل حملة صليبية ، أي بمرور الوقت ، فقدت كل هذه الرؤى الإعجازية قيمتها .^(٢)

وعلى الجانب الإسلامي فقد شاعت في عصر الحروب الصليبية أنباء الرؤى والأحلام التي يرى النائم فيها النبي عليه الصلاة والسلام ، أو الخضر ، أو أحد أولياء الله الصالحين . وغالباً ما كانت هذه الرؤى والأحلام مرتبطة بالحرب والجهاد ضد الصليبيين . كذلك كانت هذه الرؤى والأحلام تعبيراً عن الآمال التي تجيش في نفوس الناس حيال واقعهم المرير . وطفق المتعلمون يتكلمون عن القيامة وعلاماتها ويتناقشون حول الجنة ونعيمها . وازداد تأثير طرق الدراويش في ثقافة المجتمع ، فشاعت أخلاقيات الحزن والاستسلام ، والاعتقاد في الخوارق والمعجزات ، وهو ما تكشف عنه تلك الطائفة الكبيرة من أخبار الخوارق والكرامات ^(٣) والخرافات التي تداولها مؤرخو تلك الفترة باعتبارها حقائق

(١) جوناثان ريلي سميث : الحملة الصليبية الأولى ص ١٨٣ - ١٨٨ .

(٢) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين . ترجمة د / عبد الحافظ البنا . ط - دار

عين - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١ م . ص ٢٢٢ .

(٣) هناك تقارب في المعنى بين مصطلح الكرامة ومصطلح الكارزما Charisma الذي يدل

على قوة بعض الأشخاص أو موهبتهم . وهذه القوة هي التي تؤهل أصحابها لأن يكونوا أمثلة لغيرهم من الأفراد ، كما أن هذه القوة غير العادية هي التي تجعل الأفراد ينظرون على أنهم مقدسون وممتازون على البشر ، ومن ثم فهم أهل لقيادة الجماهير . أو حكاماً لمجتمعاتهم . د/فاروق مصطفى : الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر . ط -

الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية سنة ١٩٨١ م . ص ١٣٠ - ١٣١ .

تاريخية^(١) . وعند تصفح كتب تراجم عناصر صوفية بلاد الشام ، فلا يوجد صوفي له ترجمة ما ، إلا له كرامات ظاهرة ، وكانت تلك الكرامات تتكرر على السنة العامة على نحو واسع النطاق ، وقد لعب الخيال الشعبي والعاطفة الدينية دورهما في المبالغة في جانب من تلك الكرامات ، والواقع أنه مع مضي الزمن صارت تلك الجوانب تمثل قسماً راسخاً في الشخصية الشامية الدينية في خلال ذلك العصر ، وتعليل ذلك يرجع إلى أن عصر الحروب الصليبية بما شهدته من أحداث صاخبة على المستوى الحربي والسياسي وضعف الجبهة الإسلامية وعدم ظهور رد فعل إسلامي ، حاسم ضد الصليبيين حتى قرب منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وما عاناه المجتمع من اضطراب سياسي ؛ كل ذلك جعل عامة الناس أكثر ارتباطاً بالجوانب الدينية في حياتهم ، لذا فقد ارتبطوا بعناصر الصوفية وبكراماتهم طالما أنهم وجدوا في تلك الكرامات ملاذاً نفسياً وتعويضاً عما أصابهم في واقعهم من هزائم وانكسارات .^(٢)

غير أن الرؤى والأحلام الإعجازية المقدسة في الجانب الصليبي كانت أخطر من الجانب الإسلامي ، ذلك أن هذه الرؤى والأحلام التي تمت مشاهدتها في المنام وفي اليقظة ، وسواء كانت صادقة أم كاذبة ، قد تم توظيفها على نطاق واسع في الدعوة للحروب الصليبية بوجه عام ، وفي التحكم في سير أحداث هذه الحروب بعد أن دارت رحاها ، وهو ما سوف نتعرف عليه في ثنايا هذا البحث .

(١) د / قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ط - المجلس الأعلى للثقافة - الكويت سنة ١٩٩٠ م . ص ٢٢٥ .

(٢) د / محمد مؤنس عوض : العلاقات بين الشرق والغرب " العصور الوسطى " . ط - دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣ م . ص ٩٦ - ٩٧ .

جذور الرؤى والأحلام في المسيحية الغربية

لم تكن الرؤى والأحلام المقدسة وليدة عصر الحروب الصليبية ، بل كانت متجذرة في المجتمع الأوروبي منذ العصور الوثنية الباكراة ، فقد كان هناك الإله مورفيوس Morpheus إله الأحلام في الأساطير اليونانية ، وهو أحد أبناء إله النوم "هبنوس Hypnos" أما شقيقه أبكيلوس فهو يخلق الأحلام في الحيوانات في حين أن الشقيق الثالث يبعث الأحلام إلى الجماد ، وينام هذا الإله داخل كهف هادئ لا ينفذ إليه ضوء النهار وينام أطفاله " الأحلام " حول فراشه متفرقين هنا وهناك. (١)

هذا ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل كانت هناك بوابة للأحلام الحقيقية تسمى بوابة القرن Gate of Horn وهي عبارة عن مضيق صغير تمر منه الأحلام الحقيقية لتصل إلى الناس من كهف الإله هبنوس . وهناك بوابة للأحلام الزائفة تسمى بوابة العاج Gate of Ivory وهي التي تمر منها الأحلام الزائفة الخداعة الآتية إلى الناس من كهف الإله هبنوس أيضاً . (٢)

وإذا كان هذا هو موقف المجتمع الأوروبي من الأحلام في العصور الوثنية ، فإنه يمكن القول بأن اعتناق أوروبا للمسيحية وجعلها الديانة الرسمية لدولها كان بناء على حلم .

ففي سنة ٣١٢م غامر قسطنطين بكل شيء في زحفه عبر جبال الألب إلى

(١) د / إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم . جـ ٢ ص ٤٢٩ - ٤٣٠ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ٢٠ .

روما لمقابلة خصمه مكسنتيوس الذي كان يتفوق عليه كثيراً في عدد جنوده ، وفي معركة القطرة الملفية Milvian Bridge على مقربة من روما ، دارت واحدة من أهم المعارك في التاريخ وانتصر قسطنطين على منافسه وقتله شر قتلة .^(١)

وقد أرجع هذا النصر إلى أن قسطنطين أثناء زحفه هو وجيشه جنوباً شهد هو وجيشه بأكمله رؤيا ، فإن صليباً براقاً ظهر أمام نواظرهم في السماء ، وقد سطرت عليه هذه العبارة " بهذا يكون النصر لكم : Hoe vinces " وفي تلك الليلة أكد المسيح الرؤيا فيما رأى الإمبراطور في منامه من حلم ، وتأثر قسطنطين أعماق التأثير واتخذ " اللاباروم Lebarum " وهو الصليب ذو الرأس المعقوف شعاراً له ، وقاد جنده إلى النصر تحت ذلك اللواء^(٢) . وفي سنة ٣٢٣م أعلن الإمبراطور قسطنطين " ٣٠٦ - ٣٢٧م " المسيحية ديناً من أديان الدولة .^(٣)

وكانت القديسة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين توصف بأن لها روح إيمانية غير عادية ، ونتيجة لهذه الطبيعة التقيية ، تلقت رؤى إلهية تأمرها بالتحرك إلى القدس ، وبالرغم من أنهم وصفوها بالتقوى والحماس الديني الشديد

(١) نورمان كاتتور : التاريخ الوسيط . ترجمة د / قاسم عبده قاسم . ط - دار عين - القاهرة سنة ٢٠٠٩م . ج١ - ص ٦٢ .

(٢) ستيفن رنسيمن : الحضارة البيزنطية . ترجمة / عبد العزيز جاويد . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٧م . ص ١٨ - ٢٠ .

(٣) د / محمود سعيد عمران : حضارة أوروبا في العصور الوسطى . ط - دار المعرفة الجامعية . الإسكندرية سنة ١٩٩٨م . ص ٩١ .

إلا أنها لم تستطع تحديد مكان الصليب الأصلي بدون مساعدة حكماء اليهود في القدس ، ونتيجة لهذه الرؤى قامت بالتحرك لأماكن أخرى لاكتشاف بقية الآثار المقدسة .. وأخذت هيلانة جزءاً من الصليب الحقيقي والمسامير ، وقامت بوضعها على الدرع الذي استخدمه ابنها قسطنطين في الحرب ، وعلى السرج الخاص بجواده ليحرز النصر على جميع أعدائه لينشر السلام .^(١)

لكن على الرغم مما سبق ذكره إلا أن اعتناق قسطنطين قد صار مثار جدل كبير بين المؤرخين^(٢) . كذلك مما يثير الشك في حقيقة رؤيا الإمبراطور قسطنطين هو كيف عرف بأن الصليب الذي رآه هو وجنوده هو شعار المسيحية؟ وذلك قبل أن تكتشف أمة الصليب الحقيقي^(٣) ويعظمه النصارى بعد ذلك. بل هناك أمر أخطر من ذلك ، هو أنه لو قدر لهذه الآثار المقدسة أن يكشف عنها بالفعل ، أما وجد الرب يسوع غير هيلانة هذه كي يبعث إليها بهذه الرؤى المقدسة؟ والتي كانت تعمل ساقية في إحدى حانات البلقان ، وربما كانت تمتهن بالدعارة.^(٤)

على أي حال فقد أسفر انتصار المسيحية على الوثنية ، عن مبدأ لاهوتي

^(١) Gina Burke : The Justifications for relic thefts in the middle ages. Miami university , oxford , ohio . 2004. P. 51 .

^(٢) نورمان كاتنور : التاريخ الوسيط . جـ ١ ص ٦٣ .

^(٣) تنكر العقيدة الإسلامية عملية صلب السيد المسيح عليه السلام من الأساس ، وتقول بأن الصليب قد وقع على شبيهه ، ولم يقع على السيد المسيح عليه السلام وذلك استناداً على قوله تعالى (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً) النساء: آية ١٥٧ ، ١٥٨ .

^(٤) نورمان كاتنور : التاريخ الوسيط . جـ ١ ص ٦٢ .

خالص في التاريخ ، فقد تحول إلى أيدي القساوسة والرهبان وبقي فيهم زهاء ألف سنة من الزمان ، وكان من وراء ذلك أن غدا التاريخ خاضعاً للاهوت مسخراً له ، وقد أصبح عملاً تعليمياً ، وفقد كل صفة علمية كان يتصف بها وأصبح لا يكثر بحال لما هو حق أو محتمل الوقوع ، وغدا مشحوناً بأخبار الخوارق والكرامات غير معنى إلا بما له صلة بالدين ، وجملة القول إن تحول التاريخ إلى رجال الدين كان معناه محو التاريخ الصحيح في الوجود محواً تاماً دام ألف سنة ^(١). فقد أعان المسيحية في أثناء تقدمها التدريجي ، أساطير قديسيها ومعجزاتها القوية الإسناد ، ذلك أن أجيال ذلك الزمان كانت أجيالاً تؤمن بالخرافات ^(٢). وكان المؤرخون الأوروبيون حتى عصر الحروب الصليبية ، أسرى الأطر القديمة التي ورثوها عن الرومان ، والمفاهيم الغيبية التي ورثوها عن الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . ^(٣)

(١) محمود الشرقاوي : التفسير الديني للتاريخ . ط - دار الشعب - القاهرة - لم تذكر سنة الطبع . ص ٣١ .

(٢) ستيفن رنسيمن : الحضارة البيزنطية . ص ١٣ .

(٣) د / قاسم عبده قاسم : في تطور الفكر التاريخي . ط - دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٨ م . ص ١٤٧ .

العقلية الأوروبية قبل اندلاع الحروب الصليبية

إذا كان الدين يقوم في جانب منه على مجموعة من العقائد والتعاليم والطقوس، فإنه يقوم في جانب آخر على البعد الأسطوري الذي يضيف صفة القداسة على بعض الأشياء والأحداث بطرائق متعددة ، أهمها المعجزات والوحي والرؤى الغيبية التي لا سبيل إلى البرهنة عليها عقلياً^(١). كان أهل العصور الوسطى في أوروبا قوماً متدينين وكثيراً ما كانوا من السذاجة بحيث يعتقدون في الخرافات ، وكانت الرؤى المقدسة تشكل جزءاً لا يتجزأ من تربيتهم ، بصرف النظر عن معرفتهم الخاصة بعقائد الدين.^(٢)

كان الفلاحون في الغرب الأوروبي بصفة عامة أفضاظاً وبدائيين خشنين ، كما كان الجهل هو السمة الغالبة عليهم ، وكانت هذه " الكتلة الخرساء " في مجتمع أوروبا الغربية آنذاك محل احتقار الطبقات الأخرى في المجتمع ، وهذا الجهل وهذه البدائية التي تميز بها الريف الأوروبي في العصور الوسطى ؛ كانت نتيجة طبيعية لحياة العزلة التي عاشتها القرية الأوروبية في تلك الآونة . ولنا أن نتصور مدى ضيق أفق أولئك الفلاحين ، وكيف كان يمكن أن تؤثر فيهم أية

(١) حسن طلب : تنقية الدين من الأساطير . مجلة إبداع . مجلة شهرية تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب . العدد ١٢ سبتمبر ١٩٩٧ م . ص ٧٦ .

(٢) د / عبد الغني عبد المعطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامي والوسط . تحرير د/قاسم عبده قاسم . ط - دار المعارف سنة ١٩٨٤ م . مجلد ٢ . ص ١٥٥ .

دعاية باسم الدين^(١) . يقول المؤرخ البيزنطي يوحنا كيناموس على لسان أحد أباطرة بيزنطة^(٢) : " ما من شيء أسهل إثارة لخواطر الناس من حكايات الأحلام ونبوءات المستقبل " .

فقد كان الفن الأوروبي وزوجته يكدحان من بزوغ الشمس حتى غروبها ورغم هذا كله فقد كان هذا الفن لا يعتبر نفسه مظلوماً مغلوباً على أمره ، بل تصور نفسه بطلاً يفلح في الأرض ، قوياً صبوراً ، وأنه يتحمل كل هذا من أجل حياته وحياة أسرته وحياة السيد الإقطاعي ، وكان أيضاً أمياً غير مثقف ، وليس لديه معرفة عن شيء سوى الزراعة وأعمال القرية التي تكفل له الحياة التي اقتنع بها ، لذلك سيطرت عليه الخرافات .^(٣)

فقد كانت الحياة الدينية في الريف تتغذى على العديد من المعتقدات والممارسات التي كانت من تراث السحر القديم ومن نتاج الحياة الأوربية التي كانت ماتزال حافلة بالأساطير ، وكان لهذه وتلك تأثير كبير على العقيدة الرسمية فقد كان الناس ما يزالون يرون في السماء العاصفة جيوش الأشباح تمر بهم ، جيوش الموتى كما كان يقول العامة ، وجيوش الشياطين الشريرة كما كان يقول المتعلمون الذين لم ينكروا أبداً مثل هذه الرؤى وإنما كانوا يبحثون عن تفسير

(١) د / قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية . ط - دار عين - القاهرة الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩ م . ص ٨٠ .

(٢) يوحنا كيناموس : أعمال يوحنا وماتويل كيناموس . ترجمة د / سهيل زكار . نشر ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية - ط - دار الفكر - دمشق - سوريا - لم تذكر سنة الطبع . ج ٢٨ ص ٤٥ .

(٣) د / محمود سعيد عمران : حضارة أوروبا في العصور الوسطى ص ٦٦ - ٦٧ .

لها وكان تفسيرهم يحمل من الخزعبلات والخرافة ما يكشف عن تدني مستواهم المعرفي والديني في آن معاً . لقد كان الدين آنذاك مزيجاً من الخرافة وطقوس الطبيعة ، وكان القرويون يجمعون ما بين التقوى والاعتقاد في الخرافات ، فقد كان الريف يعج بالعيون الخفية والأشجار صائغة المعجزات حسب اعتقاد الفلاحين. ^(١) فكان من المستحيل تقريباً التمييز بين الواقع والخيار ، وكل القصص تم قبولها سذاجة كأنها حقيقة من قبل الجمهور الساذج . ^(٢)

إن الناس في العصور الوسطى كانوا يميلون إلى تصديق كل ما يقال ، بدلاً من البحث للفرقة بين ما هو حقيقي وما هو غير حقيقي ، واتسع أفق الخيال في كل مكان ، وصارت له اليد العليا على العقل والمنطق ، بحيث لم يصبح هناك فاصل أو تفرقة بين ما يجب أن يكون وما هو قائم فعلاً ، أو بين الخيال والواقع . ^(٣)

كان الجهل ما يزال يبسط رداءه في الغرب الأوربي في القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري ، على المجتمع الريفي ، ولا يمكن أن نتوقع في عصر تسوده الخرافات والرؤوس ملتهبة بالحماسة الدينية العاطفية أن تردّ الظواهر الطبيعية إلى أسبابها الحقيقية وليس إلى التدخل الإلهي ، وإنما ينبغي أن نتوقع أن يخترع رجال الكنيسة المعجزات التي يخدعون بها البسطاء . وكثير

(١) د / قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية . ص ٨١ - ٨٢ .

(٢) Chronique D' Albert D'Aix . Cours pratique de M. Le professeur M. Philippson. University of British Columbia 1887. P. 44 .

(٣) هاري إلمر بارنز : تاريخ الكتابة التاريخية . ترجمة د / محمد عبد الرحمن برج . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م . ج١ ص ٨٤ .

الحديث عن النجوم التي تتساقط من السماء مثلما يتساقط البرد ، وعن الأضواء الشمالية الباهرة التي كانت تسطع بنورها فوق خط السماء بشكل خارق وراجت حكايات عن الشهب الملتهبة بمساراتها فوق رؤوس الناس وشاعت أخبار الأطفال الذين يولدون بأطراف مضاعفة ، والأطفال الذين تكلموا عقب ولادتهم ، كما تناقل الناس الروايات عن الرعاة الذين رأوا مدينة تتألق في كبد السماء وهم يرعون قطعانهم ليلاً ، ونسمع عن قسيس يشاهد وهو في الطريق سيفاً ضخماً معلقاً في السماء ، تحمله الرياح ، وقس آخر يرى في وضوح النهار معركة بين فارسين في السماء يضرب أحدهما الآخر بصليب كبير ، بحيث ينتصر عليه ، فكانت هذه الأخبار تلقى اهتماماً كبيراً من الناس وتحظى بتصديقهم لها.^(١)

وقد تسرب الهوس والجنون الديني إلى معظم الفئات ، يذكر أحد المعاصرين "من رجال القرن الثالث عشر الميلادي " أن آفا من النساء جبرين عرايا عبر القرى والمدن لاندات بصمت عميق ، وفي مدينة لوتيش Luttich - الفرنسية - كان يجتمع الكثير من الناس ويكثرون من الصباح في تشنجات هستيرية ، الأمر الذي حد بأحد المؤرخين المحدثين إلى القول " بأنه كانت هناك دائماً مسة " مسحة " من الجنون تسير في الهواء"^(٢) . فأسهمت حالة الغرب الذهنية والسيكولوجية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري

(١) د / قاسم عبده قاسم : الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية . ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . مجلد ٢ ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) د / عبد الغني عبد المعطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . مجلد ٢ ص ١٥٧ - ١٥٨ .

إسهاماً كبيراً في نجاح الحملة الصليبية الأولى^(١). حيث كانت الأوضاع الاجتماعية المحبطة ، والجو الفكري المشبع بالخرافات والتدين العاطفي ، والتعصب من أهم الدوافع التي حركت المقهورين من أبناء الغرب الأوروبي في القرن الحادي عشر الميلادي إلى المشاركة في الحملة الصليبية .^(٢)

فقد لجأت البابوية إلى كل الحيل الدعائية في صياغة الأيديولوجية^(٣) الصليبية ، فقد لجأت إلى الكذب وتزوير الوثائق والمبالغة ، وترويج قصص الأحلام المقدسة والرؤى الإعجازية وساهمت الظروف التاريخية في أوروبا آنذاك في نضج هذه الأيديولوجية^(٤). وعليه فإن تاريخ الصراع الإسلامي الصليبي صنعتها الجماهير والحشود البشرية لدى كل من الطرفين بلا استثناء ، لكن الجماهير الحاشدة في الغرب الأوروبي كانت بمثابة الوقود لحركة الحروب الصليبية ، وقد حركتها البابوية بدهاء شديد من خلال التدين العاطفي الانفعالي لضمان نجاح ذلك المشروع الجديد.^(٥)

(١) ميشيل بالار : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني . ترجمة / بشير السباعي - ط - دار

عين - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣ م . ص ٣٣ .

(٢) د / قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ٦٧ .

(٣) كلمة أيديولوجية كلمة معربة ، وأصلها فرنسي مركب من جزئين idée بمعنى فكرة ، logie بمعنى علم ، فهي اشتقاقاً علم الأفكار . د / قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية . ص ٧ .

(٤) د / قاسم عبده قاسم : الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية ، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . مجلد ٢ ص ٢٢٥ .

(٥) د / محمد مؤنس عوض : الحروب الصليبية - السياسة - المياه - العقيدة . ط . دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١ م . ص ١٣ .

الرؤى والأحلام الممهدة للحركة الصليبية

ساد في أوروبا مناخ ترقب أخروي ، عبر عن نفسه من خلال نصوص مختلفة ذات نبرة رؤيوية أو نبوئية راجت في القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري ، مثل المجيء القريب لإمبراطور سوف يحرر القدس ، ويعلن ثأر المسيحيين من الإسلام ، وتمجيد الأمة الفرنجية وفرساتها .^(١)

غير أن الفكرة الكبرى التي سيطرت على أوروبا قبل اندلاع الحركة الصليبية هي فكرة نهاية العالم في سنة ١٠٠٠ ميلادية ، ففي حوالي سنة ألف ميلادية كان الناس في أوروبا مقتنعين بأن العالم يقترب من نهايته ، وأن يوم الدينونة الأخير وشيكاً ، والواضح أن هذا الاعتقاد قد نشأ لدى الناس بسبب الفقرة الشهيرة في سفر الرؤيا " رؤيا يوحنا اللاهوتي " التي تنبأ بأن نهاية العالم سوف تأتي بعد ألف سنة من موت المسيح^(٢). لكن أي إنسان يريد أن يعرف الهلع الذي حدث في سنة ١٠٠٠م فلا بد له أن يرجع إلى ما كتبه رالف جلابير^(٣) Radulf Glaber فهو يعد مصدر الجميع فيمن قالوا بنهاية العالم في هذه

(١) ميشيل بالار : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني . ص ٣٤ . بتصرف بسيط .

(٢) د / قاسم عبده قاسم : الحملة الصليبية الأولى . ص ٤٣ .

(٣) كان رالف جلابير Radulf Glaber راهباً مسناً كثير الكلام ويؤمن بالخرافات وكان منزله الفرنسي على حافة ثلاث مناطق مهمة يعبر من خلالها وفود الحجاج الذاهبين إلى ديركلوني وروما ، وقضى حياته بين ديركلوني وروما وأديرة أخرى ، وأصغى أذنيه لأي قصة تقال عن الخرافات خاصة الهام منها .

George Lincoln Burr : The year 1000 and the antecedents of the crusades. The American historical review, vol. 6, No3 " apr. 1901" P.433.

السنة .^(١) ففي الألفية الأولى حسب التقويم الميلادي زعموا بأنها ستكون نهاية العالم وسيطر هذا الاعتقاد على أوروبا بأسرها ، وأيقن الناس تماماً بأنها نهاية العالم ، فقام البعض باتفاق ثرواته في حياة الصخب ، والبعض منهم خصص ثروته وكرس نفسه للخلاص^(٢) الروحي داخل الكنائس والأديرة ، وأخذوا يبكون وينتحبون ليلاً ونهاراً من أجل التوبة ، وظهرت علامات الرعب والفرع على الكثيرين منهم^(٣). كما أن الكوارث الطبيعية التي حلت بأوروبا آنذاك كانت كثيرة ومتعددة ، وازداد شعور الناس بالضيق والضجر والحزن من جراء انتشار المجاعات والفيضانات والأوبئة ، وقد فسر الناس هذه الكوارث الطبيعية على أنها نذير بقرب يوم الدينونة وجمع الناس للحساب.^(٤)

فقد تم خداع الناس عن طريق حسابات خاطئة بأن العالم سينتهي في عام ١٠٠٠ ميلادية^(٥) ، وذلك من خلال الكتاب الذي ألفه رالف جلايبر وأرخ فيه للفترة ما بين عامي ٩٠٠ م ، ١٠٥٦ م / ٢٨٨ هـ ، ٤٤٨ هـ . على أن هذا الكتاب يتصف بعدم الدقة ، فضلاً عن إكثاره من ذكر الخرافات والأساطير ومنه

^(١) George Lincoln Burr : The year 1000 P. 433 .

^(٢) عملية الخلاص أو المخلص Savior شخصية هامة في مختلف ديانات العالم ، فهو بوذا في الديانة البوذية ، ثم هو " المنتظر " في نفس الديانة ، وهو زرادشت في الديانة الفارسية القديمة ، وهو يسوع المسيح في المسيحية . د / إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم . ج٣ ص ٢٢٨ .

^(٢) George Burr : The year 1000 . P. 429 .

^(٣) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين . ص ١٧ .

^(٤) George Burr : the year 1000 . P. 430 .

استقينا الخرافة التي شاعت في ذلك الحين ، والتي رددت بأن موجة من الرعب ستجتاح العالم المسيحي عند حلول السنة الألف بعد مولد المسيح ، ولم تثبت هذه الخرافة أن ترددت في كتب التاريخ .^(١)

فقد انقضى الألف عام الأولى من تاريخ المسيحية ، ومرت السنوات والأعوام دون تغير منظور ، ولكن هذه الفكرة العاطفية ظلت مترسبة في الوجدان المسيحي في أوروبا وشعر الناس في أوروبا شعوراً عميقاً بوطأة الذنوب والخطايا التي اقترفوها في حياتهم الدنيوية^(٢) . فكان الناس الذين سيطرت على وجدانهم آنذاك مشاعر الألفية والأخروية تواقين لضمان الخلاص . وقد تحولت مشاعرهم هذه إلى التأكيد على ضرورة الرحلة إلى بيت المقدس " Iter Hyerosolimitanum " وقد انعكس ذلك في زيادة عدد الرحلات التي قام بها الحجاج من غرب أوروبا صوب القدس.^(٣)

كتب تيرتوليان Tertullian – أشهر علماء اللاهوت في الغرب في ذلك الوقت – في أوائل القرن الثالث الميلادي عن معجزة عجيبة في فلسطين ، شوهدت مدينة مسورة في السماء في الصباح الباكر من كل يوم لمدة أربعين يوماً وكانت تبتهت مخفية مع تقدم النهار وكانت هذه علامة أكيدة على أن القدس السماوية على وشك النزول ، وكانت هذه هي الرؤيا نفسها التي تلهب وتمتن مقاومة حشود الشعوب الصليبية وهي تكدح نحو القدس بعد ذلك بنحو تسعة

(١) هاري بارنز : تاريخ الكتابة التاريخية . ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين . ص ١٧ .

(٣) د / قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ١٧ .

قرون .^(١) لقد سيطرت أورشليم على الأفق الأخرى ، وكانت الصورة الذهنية للمدينة المقدسة ذات أهمية خاصة في تقوى ذلك العصر ، وبالنسبة لناس ذلك الزمن ، فإن صوت الاسم نفسه لابد أنه كانت له " روعة باهرة سحرية " وكان الناس البسطاء غير المتعلمين مفعمين بأحلام أخروية مبهمّة وغامضة وغير متماسكة على الأرجح ، كما أن الحج كان رحلة عبر الخيال ، وكانت خطوات الحجاج تقتفي أثر المخليلة ، فالخيال هو الذي رسم حدود العالم ، وقد جرى طمس الحد بين الخيال والواقع ، كما أن أورشليم السماوية وأورشليم الأرضية قد امتزجتا أيضاً في مخليلة أنصار الحركة الصليبية .^(٢)

كانت الصورة الغيبية عن القدس السماوية التي تختلط بواقع القدس الأرضية تؤثر تأثيراً عميقاً في وجدانهم ، إذ كانوا يظنون أنهم ماضون إلى الأرض التي لا يوجد بها فقراء *Pauperes* ، وشاع بينهم أن نهاية العالم القريبة سوف تنقلهم إلى أورشليم السماء ، حيث يستمتعون بالنعيم الخالد . هذا التراث هو الذي جعل القدس السماوية تختلط بالقدس الأرضية في أحلام المقهورين من أبناء الغرب الأوروبي ، وهو تراث كان يمثل ركيزة الفكر الغربي الشعبي في القرن الحادي عشر الميلادي / الخامس الهجري . أي عشية الحروب

(١) د / سهيل زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية . نشر ضمن الموسوعة الشاملة في

تاريخ الحروب الصليبية . ط - دار الفكر - دمشق سنة ١٩٩٥ م . ج ٤ ص ٢٤ .

(٢) توماش ماستاك : السلام الصليبي . ترجمة / بشير السباعي . ط - المجلس الأعلى

للثقافة - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣ م . ص ٦٠ - ٦١ .

الصليبية ^(١). ذلك أن رغبة الفلاحين بتلك البلاد في الفرار من مواطنهم القاسية الفقيرة ، وفي الهجرة إلى بلاد تعج بالثروة الأسطورية ، فخلطوا بين بيت المقدس على وجه الأرض ، وبين تلك التي في السماء ، وتوقعوا أن يصادفوا مدينة يكسوها الذهب وتفيض باللبن والعسل ، غير أن آمالهم خدعتهم ، ولكنهم لم يتخلصوا من الخداع إلا في بضع ^(٢). وبما أن الغرب الأوروبي ظل حتى ذلك الحين ريفي الطابع ، فقد كان الدين بالنسبة لسكانه — وهم أغلب سكان أوروبا آنذاك — مزيجاً من الخرافة وطقوس عبادة الطبيعة ، وبعض تعاليم المسيحية. ^(٣) وعلى الرغم من أن هذه الأفكار والتوقعات التي دارت حول اكتمال الألف الأولى في التقويم المسيحي ، وما أفرزته من أخبار المعجزات والخوارق ، والأحلام المقدسة ، كانت من روافد الأيديولوجية التي صاغت الحملة الصليبية ، إلا أنها في التحليل الأخير لم تكن عامل الحسم في الوصول إلى صيغة الحملة الصليبية الأولى ^(٤). فقد كانت الحروب الصليبية بمثابة مؤامرة بابوية شريرة ، وقتاع يستتر وراءه مظاهر الجشع الدنيوي المادي. ^(٥)

(١) د / قاسم عبده قاسم : الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية . ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . مجلد ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٢) ستيفن رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة د / السيد الباز العريني . ط — دار الثقافة — بيروت — لبنان سنة ١٩٩٧م . مجلد ٣ قسم ٢ ص ٦٠٠ .

(٣) د / قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ١٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٩ .

(٥) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين . ص ١٣ .

دور الرؤى والأحلام المقدسة في الدعوة

للحركة الصليبية

يعد البابا أوربان الثاني^(*) Urban II هو المسئول عن الحركة الصليبية، ففي ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م / ٤٨٨ هـ في مؤتمر كليرمونت^(**) Clermont قام بإلقاء خطاب ، قاد العديد من الآلاف للرجبة في أخذ الصليب ، وهناك العديد من النسخ للخطاب الذي قاله ، ولكن هذه النسخ تختلف في تعبيراتها ، لذلك لا نستطيع أن نقرر ما هو الكلام الذي قاله بالضبط^(١) ، وقد بدأت الحركة الصليبية في أسلوب ميلودرامي قُدر له أن يكون أسلوبها النمطي فيما بعد ولأن البابا نفسه كان من أبناء الطبقة التي رغب في أن يستغفرها ، فلاشك أنه كان يعرف كيف يلعب على عواطف حاملي السلاح .^(٢)

بدأ المبشرون الجوالون الكنسيون وغير الكنسيين يطوفون القرى والمدن

^(*) في ١٢ مارس سنة ١٠٨٨ م / ٤٨١ هـ اعتلى العرش البابوي البابا أوربان الثاني ، وهو: رجل فرنسي كان اسمه العلماني أودو دي لاجيري odo de lagery . د / قاسم عبده قاسم الخلفية الأيديولوجية . ص ٩٥ .

^(**) كليرمونت Clermont : معناها بالفرنسية الجبل المضيء ، وعندما اتدلعت شرارة الاضطهاد الصليبي ضد اليهود . أطلقوا عليها اسماً عبرياً معاكساً هو " هارهاوغل " أي الجبل المظلم ، تعبيراً عن كراهيتهم لهذا المكان الذي شهد الدعوة إلى الحروب الصليبية . د / قاسم: اضطهاد الصليبيين ليهود أوروبا . مجلة إبداع عدد ١٢ سنة ١٩٩٧ م . ص ٥٣ .

^(١) Dana munro : the speech of pope urban II. The American historical Review, vol. 11 , No 2 , " Jan, 1906 " P. 231 .

^(٢) جوناثان سميث : تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية . ترجمة د / قاسم عبده قاسم . ط — دار عين — القاهرة — الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٧ م . ص ٧ .

الأوروبية والقلاع الإقطاعية يستحثون الأهالي من أجل المشاركة في تحرير الأرض المقدسة في فلسطين ، ولم تقتصر دعوة الوعاظ الجوالين على تحرير الضريح المقدس الذي دنسه الحكام المسلمون - في اعتقادهم - فحسب ، بل تضمنت دعوتهم أيضاً تحرير وفك أسر المسيح نفسه وإنقاذه من يد المسلمين وإعادته إلى المجد^(١) ، وقد غصت المصادر اللاتينية التي عالجت تاريخ وأحداث الحملات الصليبية عامة ، وأحداث الحملة الأولى منها خاصة ، غصت بكثير من الروايات التي تثبت سذاجة الفرنج الدينية وإيمانهم بالظواهر الخارقة للطبيعة ، وكان المؤرخون اللاتين أحياناً يميلون إلى تأكيد صحة وحقيقة ما يحدث لإثارة الحماسة الصليبية في غرب أوروبا.^(٢)

أما صدى الدعوة إلى الحرب المقدسة على الصعيد الشعبي ، فكان مثيراً حقاً ، ففي مجتمع له ظروف الغرب الأوروبي في القرن الحادي عشر ، حيث تسود مظاهر الجهل ، وتتفشى الأمية ، وحيث تختلط المفاهيم الدينية بالخرافات والخزعات. كان لابد أن تكون الاستجابة لمثل هذه الحرب قوية ، بل وهستيرية وهو ما حدث بالفعل^(٣). ففي غضون بضعة شهور وصل محتوى الرسالة إلى جميع قرى وقصور الجماعة المسيحية في فرنسا ، واشتدت الحماسة من جراء حوادث طبيعية تشير إليها مدونات الأخبار ، مثل خسوف القمر وسقوط النيازك ،

(١) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين . ص ٢١ .

(٢) بطرس توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس . ترجمة د / حسين عطية . ط - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية سنة ١٩٩٨ م . ص ٢٤٨ حاشية رقم " ٣٨ " .

(٣) يوشع براور : عالم الصليبيين . ترجمة د / قاسم عبده قاسم . ط - دار المعارف - الطبعة الأولى سنة ١٩٨١ م . ص ٢١ .

والنشاط الشمسي المتزايد ، بينما تنتشر نبوءة أخروية تعلن تنويع آخر إمبراطور في القدس قبل انتهاء الزمان ^(١). وجاء موسم سنة ١٠٩٦م / ٤٩٠هـ جيداً ، فتفاعل الناس خيراً ، واعتبروه رضا ربانياً ، وتساقطت النيازك بكثرة ، فاعتبرها أسقف ليزيو Lisieux - بفرنسا - إشارة سماوية تنبئ بزحف الجماهير على الأراضي المقدسة . ^(٢)

كان الفلاحون هم الذين تحركوا أولاً ، ويمكن أن نعزو ذلك إلى الظروف الاجتماعية المحبطة السيئة التي كان يعيشها أفراد هذه الطبقة الشعبية ، وأيضاً بسبب حالة التعصب الديني المستعرة التي كانت تحكم طبقات العامة في المجتمع الإقطاعي الأوروبي آنذ ^(٣) . حيث كان الفقراء يتصورون أنهم المقصودون بهذه الدعوة ، فقد تبلورت فيهم الأفكار الأنفية والأخروية ، فساروا صوب القدس دون انتظار الأمراء وفرسانهم الذين كانت تعوزهم فسحة من الوقت لتمويل الحملة ^(٤) ، فقد كان الفقراء والمعدمون يعدون أنفسهم المختارين من الله ، ربما ظنوا أن المسيح قد عاش فقيراً ، ولذلك فإنه يفضلهم معشر الفقراء عن غيرهم ، ويخصهم ببركاته المتمثلة في الرؤى والأحلام المقدسة ، وكانت هذه الرؤى والأحلام تلوح لهم عندما يتعرضون لأزمة من الأزمات أو يواجهون موقفاً مبنوساً

(١) ميشيل بالار : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني . ص ٨٣ .

(٢) د / أسد رستم : كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى . ط - المكتبة البولسية - بيروت - لبنان سنة ١٩٨٨م . ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين . ص ٢٣ .

(٤) د / قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ١٨ .

منه^(١) . ومن المثير حقاً أن الأحلام المقدسة كانت دائماً من نصيب الفقراء الذين رافقوا الحملة الأولى .^(٢) ومن بين الشعوب أو الأفراد الذين لم يصل إليهم المرسوم البابوي ، اعترف البعض منهم بأنهم ذهبوا إلى أرض الميعاد بناء على دعوة المتنبئين الذين ظهروا من بينهم ، أو بناء على علامات وإشارات في السماء^(٣) ، كما أن القائمين على الدعوة للمشاركة في الحرب الصليبية أقروا بأن الجيوش الصليبية اشتملت على مغامرين ودجالين .^(٤)

قام عدد من الأفراد برسم صلبان على أجسادهم عن طريق الوشم باللون الأزرق أو الوشم بالنار ، وربما كانوا تحت تأثير حالة من الهستيريا أو ضحية للخداع وكان بولدين Baldwin القس التابع لجودفري البويوني — أحد قادة الحملة الصليبية الأولى — أكثر أولئك تأثيراً ، ووشم جبهته بالنار بعلامة الصليب ومول رحلته إلى الشرق بما قدمه المؤمنون من إعانات ، فقد كان أولئك المؤمنون يعتقدون بأن أحد الملائكة^(٥) يقودهم إلى الشرق .^(٥)

(١) د / عبد الغني عبد المعطي : صليبية الأطفال . مجلد ٢ . ص ١٥١ .

(٢) د / قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية . ص ١٤٨ .

(٣) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ٧٧ .

(٤) المرجع السابق : ص ٧٨ .

(٥) الملائكة The angels : في الفكر المسيحي هي الأرواح السماوية التي تخدم الله — عز وجل — بسعة مختلفة ، فهي كائنات سماوية فوق طاقة البشر ، وهم مخفيون عادة ، والوظيفة الأساسية للملائكة هي تنفيذ إرادة الله وتمجيده .

new catholic Encyclopedia : washington , D.C second Edition U.S.A, vol 1. p . 415 . The angels .

(٥) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى ص ١٥٢ — ١٥٣ .

وقد اختار البعض لأنفسهم قادة من بين نظرائهم ، على حين انضوى البعض الآخر تحت لواء أحد الفرسان أو أحد أبناء العائلات النبيلة ، وتحرك البعض دونما قيادة^(١) ، ومن بين هؤلاء القادة أميكو Emicho ، كونت ليزينجن Leisingen والذي كان باروناً إقطاعياً سيء السمعة . لضرارته ، لكنه ادعى بأنه قد دعى لحمل الصليب في الرؤى والإلهام الإلهي ، ففي أحد الأيام جاءه رسول من المسيح ووضعه على لحمه علامة - لاشك أنها العلامة التقليدية للاختيار الإلهي أي الصليب ووضعها على أو بين لوح الكتف - وادعى أميكو أن هذه العلامة كانت رمزاً مؤشراً على أن المسيح نفسه سيقوده إلى النصر ، وفي الوقت المناسب سيضع تاجاً على رأسه .^(٢)

وبفضل هذه القصة وبفضل شهرته كمحارب اجتمع حوله مجموعة من الحمقى صرحوا بأن هناك أوزة^(*) ملهمة بروح القدس ، وكانت هناك عنزة أيضاً قد ملئت بالروح القدس ، وقد جعلوهما دليلهما في الرحلة المقدسة إلى القدس ، غير أن السيد المسيح ما تمنى أن يزار قبره المقدس بهذه الحيوانات الشرسة العديمة الحس ، كما أنه لم يتمن أن تصبح هذه الحيوانات أدلاء للأرواح

(١) يوشع براور : عالم الصليبيين . ص ٤٦ .

(٢) د / سهيل زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية . الموسوعة الشاملة جـ ٤ ص ٩١ .

(*) الأوزة Goose : كانت مقدسة في الأساطير الرومانية عند الإلهة جونو Juno زوجة كبير الآلهة جوبيتر ، وكانت الأوزة توضع في معبد الإلهة لكي " تكاكي " للتيمن بها قبل ملاقة الأعداء . د / إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم . جـ ٢ ص ٥٠ ، وربما تكون هذه القداسة للأوزة قد بقيت في الوجدان الأوروبي حتى عصر الحركة الصليبية .

المسيحية^(١) ، على حد تعبير المؤلف . كانت حملات أميکو مخزية بدرجة كافية ، وجماعته من الدهماء الألمان والفرنسيين لم تصل أبداً إلى آسيا الصغرى ، وإنما هزمت وشتت من قبل الهنغار ، وعاد هو نفسه إلى وطنه بمفرده ، ومع ذلك فإن هالة القوة الخارقة كانت تلصق بأميکو ، وبعد مقتله في عام ١١١٧م / ٥١١هـ بسنوات افترض أنه يتابع نوعاً من الوجود في جبل قرب " ورمز " رؤى منه يظهر من وقت لآخر وسط فرقة مسلحة وهذه أسطورة توحى بقوة بأن الخيال الشعبي قد أصر على تحويله إلى بطل نائم لا بد أن يعود يوماً ما .^(٢)

على الرغم من أن الحملة الصليبية الأولى كان ينظر إليها على أنها مشروع فرنسي وعمل قومي ، إلا أن سكان فرنسا ذاتها لم يعتبروا أنفسهم ينتمون إلى أمة واحدة ، فعلى الرغم من أن مصطلح " فرنجة " اشتمل على أناس من غرب ألمانيا، فقد كان أهالي بروفنسال Provençals يعاملون وكأنهم ينتمون إلى جنس آخر غير الفرنجة ، وتوترت العلاقات بينهم وبين الفرنسيين ، كما أنهم تخلوا عن صيحة المعركة " هذه إرادة الله Deus hoc vult " التي استخدمها الفرنسيون الشماليون ، والنورمان في جنوب فرنسا ، واستخدموا صيحة أخرى هي " الله في عوننا " ويقال إن صيحة المعركة جاءتهم عن طريق شخص كثير الرؤى ونصحهم باستخدامها.^(٣)

(١) August. C. Krey : The first crusade : The Accounts of Eyewitnesses and participants . princeton. 1921. p. 54 - 56 .

(٢) د / سهيل زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية . الموسوعة الشاملة ج٤ : ص ٩١ .

(٣) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٦٠ .

ولم يكف الصليبيون عن هذه الرؤى حتى في طريقهم إلى الشرق ، من ذلك قول فوشيه الشارترى^(١) : " عندما وصلنا إلى مدينة هرقلية^(٢) ، رأينا علامة معينة في السماء ، ظهرت بشكل بياض ناصع على هيئة سيف يشير إلى الشرق ، لم نعرف ما كانت تنبئ عن المستقبل ، وتركنا الحاضر والمستقبل بيد الله " وقد ساعدت هذه الرؤى والظواهر الطبيعية على تدعيم الإيمان الراسخ بأن الحرب الصليبية كانت حرباً في سبيل الله ، وليس هناك ريب في أن الصليبيين اعتقدوا بأنهم خاضوا تلك الحرب تحقيقاً لمبدأ العدل^(٣) . غير أن فكرة الحرب المقدسة التي دعت إليها الكنيسة وباركتها ، وغرستها في عقول الأوروبيين الغربيين ، قد سجل التاريخ بأن "الصليبيين كانوا بعيدين تماماً عن الإيمان المثالي الذي اعترفوا به " .^(٤)

(١) فوشيه الشارترى : تاريخ الحملة إلى القدس . ترجمة د / زياد الصليبي . ط - دار الشروق عمان - الأردن - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠ م . ص ٥١ .

(٢) هرقلية : مدينة ببلاد الروم - في تركيا حالياً - الحموي : معجم البلدان . ط - دار

إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان سنة ١٩٧٩ م . ج ٥ ص ٣٩٨

(٣) جوناثان سميت : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٩٤ .

(٤) Robert Duncan : The power of a pilgrimage to the holy land. P.45 .

حلم بطرس الناسك (*) ودوره في الدعوة

للحروب الصليبية

كان بطرس الناسك محور أسطورة اعتبرها المؤرخون حقيقة تاريخية ، وقد نسبت الأسطورة إلى بطرس فضل إثارة الغرب الأوروبي لشن حربه الصليبية ضد الشرق العربي الإسلامي ، تقول المؤرخة البيزنطية أنا كومينا عن بطرس الناسك^(١) : "دبر حيلة ماهرة إذ مضى يبشر في جميع الأقطار اللاتينية ، وقال إنه سمع صوتاً إلهياً أمره أن يعلن إلى جميع الكونتات في فرنسا بوجود مغادرتهم بلدانهم والنهوض إلى أداء الصلاة في الهيكل الطاهر ، وأن يجاهدوا بأرواحهم وقواهم لتخليص بيت المقدس " . وقد زاد على هذه الرواية ألبرت أيكس فزادها توضيحاً فقال^(٢) : " إن بطرس الناسك قدم للحج إلى القدس ، ونام ذات ليلة في القبر المقدس ، فظهر له يسوع المسيح في المنام ، وأمره بالعودة إلى الغرب والتبشير بالحروب الصليبية لإنقاذ المدينة المقدسة " .

(*) بطرس الناسك : هو واعظ الحملة الصليبية الأولى ، ولد عند أبرشية أميان Amiens بفرنسا سنة ١٠٥٠ م / ٤٤٢هـ ، وتوفي ودفن في دير نافموتر Neufmouter في شهر يوليو سنة ١١١٥ م / ٥٠٩هـ ، ومهنته المبكرة غامضة ، أما لقب الناسك فقد اشتق من عبادة النساك التي يرتديها عادة ، وكان يمشي حافي القدمين ولا يستحم ، وامتنع عن أكل الخبز واللحم ، وكان يقات بشكل رئيس على السمك والنبيد . New catholic Encyclopedia. Vol. 11 P. 207 Peter the hermit

(١) أنا كومينا : الأكسياد . ترجمة د / حسن حبشي . ط - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٤ م . ص ٣٨٨ .

(٢) Chronique D' Albert D'Aix : P.50 .

غير أن المصادر الأوروبية المتأخرة عن عهد الحملة الصليبية الأولى ذكرت هذا الحلم وأثره في الدعوة للحروب الصليبية بشيء من التفصيل ، من ذلك قول المؤرخ روجر أوف ويندوفر^(١) : " كان هناك راهباً اسمه بطرس ، يمارس أعمال النسك وكان قبل قليل من وقوع هذه الأحداث — مؤتمر كليرمونت — قد ارتحل إلى خارج فرنسا ، ذلك أنه كان مرتبطاً بعهد الحج إلى الأراضي المقدسة وعند وصوله إلى مقصده ودخل المدينة تسلم مقر إقامة في بيت أسرة مسيحية ... وحدث في أحد الأيام أنه كان قلقاً أكثر من المعتاد ، وراعياً بالعودة إلى بلده . فدخل إلى كنيسة القيامة حيث أمضى الليل في صلاة وصوم ، وأخيراً وقد وجد نفسه منهكاً تمدد فوق البلاط يتمتع بقليل من النوم ، وما أن كاد يغمض عينيه حتى رأى يسوع المسيح ، واقفاً أمامه ، وهو يحثه على تنفيذ المهمة المذكورة ويقول له : " انهض يا بطرس ، وأسرع ونفذ بدون خوف الذي عهد به إليك ، ذلك أنني سوف أكون معك ، لقد آن الوقت لتطهير الأماكن المقدسة ، ولنجدة عبيدي والتفريج عنهم في تعاستهم ، واستيقظ بطرس وهو مطمئن بالرؤيا الربانية ورحب بالنصيحة الربانية ثم بادر مسرعاً نحو شاطئ البحر ، وصعد هنا إلى ظهر سفينة ووصل إلى روما ووجد البابا أوربان وقدم له رواية متوازنة وصادقة حول التعاسات التي يعاني منها الذين في الأرض المقدسة ووعد البابا بأنه سوف يتعاون معه في الوقت المناسب بإخلاص عظيم " . ويبدو أن بطرس قد أسهم في الأسطورة بحمل الرسالة السماوية معه أينما وعظ ، وكان

(١) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ . ترجمة د / سهيل زكار . نشر ضمن الموسوعة

الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية . ط — دار الفكر — دمشق — سوريا — لم تذكر سنة

الطبع . جـ ٣٩ قسم ١ ص ١٥ — ١٧ .

نجاحه كداعية ضخماً^(١). إن البحث العلمي الحديث كشف عن زيف هذه الأسطورة ، وعن أن هذا الرجل كان أبعد ما يكون عن استحقاقه هذا الدور ، إذ كان مجرد واحد من أفراد كثيرين استجابوا لدعوة أوربان الثاني ، فضلاً عن أن شهرته قد اقتصر على شمال فرنسا وألمانيا ، لأن الإنجليز والإيطاليين لم يعرفوا عنه شيئاً^(٢) ومن المرجح أنه حاول منذ سنوات أن يؤدي الحج إلى بيت المقدس ، غير أنه تعرض للأذى من قبل الأتراك ، فأرغموه على العودة دون أن يؤدي الحج^(٣).

ولم يكن حلم بطرس الناسك هذا هو الذي حرك الشعوب الغربية نحو الشرق، بل يقال إن الأسقف جيلبرت اليزيوي Gilbert of liseux في غرب أوروبا ، كان قد تنبأ بهجرة شعوب غرب أوروبا قبل دعوة البابا أوربان لذلك في مجمع كليرمونت^(٤)، وهناك وثيقة تحمل عنوان " من تكون أورشلیم Who is Jerusalem " ترجع إلى عهد البابا سلفستر الثاني I Silvester ٩٩٩ - ١٠٠٣ م / ٣٩٠ - ٣٩٤ هـ " يرى فيها العلماء أن بها نظرة بعيدة لأقدم اقتراح للحركة الصليبية وهذه الوثيقة تنتسب إلى البابا سلفستر الثاني لأنه تم العثور عليها وسط أوراقه^(٥).

(١) د / سهيل زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية . الموسوعة الشاملة جـ ٤ ص ٧٦ .

(٢) د / قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية . ص ١٢٢ .

(٣) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ ص ١٦٩ .

(٤) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٧٠ .

(٥) George Burr : The year 1000. P. 437 .

والحقيقة أن المصادر التاريخية التي عاصرت الأحداث التي جرت منذ كليرمونت ١٠٩٥ / ٤٨٨ هـ ، وحتى سقوط القدس سنة ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ لم تذكر شيئاً عن حج بطرس إلى أورشليم ، باستثناء أنا كومنيننا ، وبما أن أنا كومنيننا كانت طفلة زمن وقوع هذه الأحداث ، كما أنه كتبت بعد نحو نصف قرن من الأحداث ، فلا يعتمد عليها كثيراً .^(١)

أضف إلى ذلك أن دافع بطرس الناسك لاعتناق الرهبنة من الأساس ، ثم انخراطه في الدعوة للحروب الصليبية ، لم يكن بدافع الدين ، بل لأنه كان معقداً نفسياً ، وهذه العقدة أتت إليه من جراء تعرضه للطعن في كرامته بسبب سوء سلوك زوجته ، فلم يجد بديلاً لسلوى نفسه سوى تطليق الدنيا ووهب نفسه للقضية الصليبية.

فقد كان بطرس الناسك من مواليد مدينة أميان بفرنسا — كما ذكر آنفاً — واسمه الحقيقي " كوكو بيتير " وكان قمينا قصير القامة ، قبيح الوجه بينه وبين النظافة عداوة مقيمة ، ولعل صفاته هذه هي التي دفعت زوجته للتمرد عليه والارتقاء في أحضان الآخرين ، الأمر الذي أحدث شرخاً عميقاً في نفسه ، فترك زوجته وأولاده ، وهام على وجهه في فيافي فرنسا ، وانقطع للزهد والتعب فبلغته دعوة البابا أوربان الثاني لحرب المسلمين ، فتطوع تلقائياً للدعوة لهذه الحملة .^(٢)

(١) د / قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية . ص ١٢٢ .

(٢) د / تيسير بن موسى : نظرة عربية على غزوات الإفرنج . ط — الدار العربية للكتاب — بيروت — لبنان — لم تذكر سنة الطبع . ص ٥٤ .

على الرغم من أن حلم بطرس الناسك كان زائفاً ، إلا أنه لا يزال يحظى باهتمام المؤرخين باعتباره تجسيداً للحماسة الدينية الشعبية من ناحية ، وبسبب تناقض تصرفاته مع المثال الذي بشر به ودعا إليه من ناحية ثانية ، إذ أن بطرس الذي يعتبره بعض المؤرخين الفرنسيين نبي الحركة الصليبية ، قد هرب أثناء معاناة الصليبيين في حصار أنطاكية سنة ١٠٩٨م / ٤٩٢هـ وقبض عليه ، وأعيد إلى المعسكر الصليبي بصورة مهينة .^(١)

لقد استطاع بطرس الناسك بفضل ما أوتيّه من قوة في الخطابة وقدرة على الإقناع أن يحث الكثيرين على الانخراط في الحملة الصليبية الشعبية بأسرع ما يمكن ، فكان معه أساقفة ورؤساء أديرة ، وعامة الشعب والأشراف ، بالإضافة إلى الأشرار والزناة ، والقتلى واللصوص^(٢) .

فقد كان العصر عصر الرؤى ، وظن الناس أن بطرس كان يعلم الغيب ، فاعتقد كثير من السامعين فيما وعدهم به بطرس من أنه سوف يخرجهم من حياة البؤس والشقاء التي يعيشونها ، إلى الأرض التي تفيض باللبن والعسل ، التي تحدثت عنها الأناجيل^(٣) ، تقول أنا كومنينا عن أثر دعوة بطرس الناسك في شعوب الغرب الأوروبي للانخراط في الحركة الصليبية^(٤) : " والعجيب في الأمر أنه نجح في دعواه هذه وكأنه صب في كل قلب قبساً ربانياً ، فتوافد الناس زرافات

(١) د / قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ١١٦ .

(٢) August Krey : The first crusade. PP. 48 0 52 .

(٣) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ١٧٢ .

(٤) أنا كومنينا : ألكسياد . ص ٣٨٨ .

بعضها في إثر بعض من شتى النواحي حاملين أسلحتهم ومستصحبين جيادهم وكل تجهيزاتهم الحربية ، وفاضت بهم الحماسة والحمية فتزاحموا وساروا عبر جميع الطرق ، وجاء مع هؤلاء المحاربين حشد من المدنيين ، كانوا في كثرتهم كرمل شاطئ البحر أو كنجوم السماء في عددهم ، وقد حملوا معهم سعف النخيل ورسموا الصليب على أكتافهم " ، وهكذا دارت عجلت الحروب الصليبية ، بفضل حلم بطرس الناسك وما سبقه من أحلام ورؤى زائفة ، قد تم استغلالها أسوء استغلال .

فيروز الزراد وحلم سقوط أنطاكية

في أيدي الصليبيين

وصلت طلائع الجيش الصليبي الرئيسي إلى مدينة أنطاكية ، وكان بوهيمند على رأس قوة مؤلفة من أربعة آلاف رجل ، أول من وصل إليها ، فتمركز تجاه بابها الشرقي ، ثم تبعه بقية أفراد الجيش الصليبي ، وبعد الانتهاء من عمليات التمركز ، عمد الصليبيون إلى إلقاء الحصار على المدينة من أبوابها الرئيسية ، وقاموا ببناء المعازل الخشبية والأبراج العالية ، ولكن تطويقهم لها بقي جزئياً ، نظراً لطول سورها.^(١) فقد كانت مدينة أنطاكية من أقوى مدن ذلك العصر تحصيناً ، بحيث لا يمكن مقارنتها في مناعتها وقوة تحصينها إلا بالقسطنطينية .^(٢)

وفي ظل افتقار الجيش الصليبي إلى المؤن وإلى حسن القيادة ، كان رجال الدين يعززون الانتصارات التي كان يحققها ذلك الجيش إلى عون الله له^(٣). وكالعادة عندما تشتد الأزمات على الصليبيين تبرز الرؤى والأحلام المقدسة بقرنيها لتدعم من موقف الصليبيين وتشد من أزرهم . وكان لسقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين نصيب كبير في هذه الرؤى والأحلام .

(١) سعيد برجوي : الحروب الصليبية في المشرق . ط - دار الآفاق الجديدة - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤ م . ص ١٢٢ .

(٢) د / سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية . ط - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - الطبعة التاسعة سنة ٢٠١٠ م . ج ١ ص ١٥٦ .

(٣) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٦٩ .

في أثناء سير الحملة الصليبية الأولى نحو أنطاكية ، كشف أحد تلاميذ أرنولف الشوكي Arnulf of alchocques – بطريك بيت المقدس بعد احتلال الصليبيين للقدس – له عن نبوءة تدل على انتصار الصليبيين من أنطاكية ، وكان ذلك التلميذ من المنجمين ^(١). ويقول المؤرخ فوشيه الشارترى وهو ممن عاصر وشارك في حصار الصليبيين لأنطاكية^(٢) : " في تلك الفترة رأينا شعاعاً أحمر في السماء ، كما شعرنا بزلزلة عظيمة في الأرض ، مما أوقع الخوف في قلوبنا ، وقد رأى الكثيرون علامة معينة ، على شكل صليب ، بيضاء اللون ، تسير في طريق مستقيم إلى الشرق " وقد حصلت هذه المظاهر الضوئية والزلزلة أول عام ١٠٩٧ م / ٤٩١ هـ . كما يذكر ريموند اجيليزو ، ومن المحتمل أن العلامة في السماء كانت ضمن هذه المظاهر الضوئية^(٣) ، وقد ذكر فوشيه الشارترى بأنها عبارة عن صليب أبيض اللون ، وذلك من باب شد أزر بني جلدته للصبر على حصار أنطاكية الذي طال أمده .

وقد ذكر فوشيه الشارترى نفسه ما يؤكد على معاناتهم من هذا الحصار فقال:^(٤) "في عام ١٠٩٧ م / ٤٩١ هـ بعد أن خلت الأراضي حول أنطاكية من الجموع الغفيرة من شعوبنا ، تزايد البؤس في نفوس الكبار والصغار بسبب الجوع الشديد ، وأكل الناس جذوع التعليقات التي مازالت تنبت في الحقول ، وجميع الأعشاب غير المملحة ، وحتى الأشواك التي لم يستطيعوا إيجاد طهيها

(١) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٧١ .

(٢) تاريخ الحملة إلى القدس : ص ٥٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ٩٣ ، حاشية رقم (١٠٤) .

(٤) المصدر السابق : ص ٥٥ – ٥٦ .

بسبب انعدام الحطب لإشعال النار ، لذا فإن عدداً كبيراً من الناس لم يجدوا لأنفسهم غطاء إلا السماء " .

وعلى الرغم من أن أنطاكيا قد سقطت في أيدي الصليبيين بناء على خيانة فيروز الزراد وتعاونه مع الأمير بوهيمند ، إلا أن فوشيه الشارترى يرجع الدافع في عملية السقوط إلى الرؤى والأحلام المقدسة يقول عن ذلك^(١) : " ظهر الرب لتركي معين ، كانت قد كتبت عليه بركة الله ، وقال له : انهض أيها النائم . إنني أمرك أن ترجع هذه المدينة للمسيحيين " استغرب الرجل ذلك ، ولكنه حفظ أمر الرؤيا سرّاً . ظهر الرب له ثانية وقال : ارجع هذه المدينة للمسيحيين لأنني الذي أمر بذلك ، أنا يسوع المسيح " احتار الرجل فيما يفعل وذهب إلى سيده حاكم أنطاكيا وأعلمه بأمر الرؤيا فأجابه هذا قائلاً : أتريد أيها الغبي أن تطيع شعباً ؟ " فعاد الرجل ولزم الصمت. ظهر الرب له مرة أخرى وقال : لم لم تفعل ما أمرتك به ؟ لا تتردد لأنني أنا الذي أمر بهذا أنا رب الجميع . فلما زال الشك من نفسه بدأ الرجل يخطط سرّاً مع رجالنا في مؤامرة تمكنهم من الاستيلاء على المدينة " .

وهو يقصد بالتركي فيروز الزراد الخائن الذي كان في خدمة ياغي سيان — حاكم أنطاكيا — ويطلق عليه اسم بيروس Pirus وبيرهوس pyrrhus وفيروس Firous ، كما أن له عدة أسماء أخرى ، ويسميه المؤرخ ريموند اجيل " التركي " .^(٢)

^(١) تاريخ الحملة إلى القدس : ص ٥٧ — ٥٨ .

^(٢) ريموند اجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ترجمة د / حسين عطية . ط . ب دار المعرفة الجامعية — الإسكندرية . الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠ م . ص ١٢٣ . حاشية رقم (١)

على الرغم من أن كتابات فوشيه الشارترى تتصف بالغرور والتعصب^(١) إلا أنه من خلال تحليل روايته السابقة - والتي يؤكد فيها على أن دافع فيروز للخيانة هو هذا الحلم المقدس - يتضح عدم صدقها ، إذ كيف يشترك الرب - بزعمهم - في نسج هذه المؤامرة - كما عبر عنها الشارترى بهذا اللفظ - من أجل سقوط مدينة كأتطاكيا في أيدي الصليبيين ؟ فما سمعنا من قبل عن رب ينفذ إرادته من خلال المؤامرات . ولكن لكي نستجلي الدافع الحقيقي من وراء خيانة فيروز الزراد وتسليمه المدينة لجحافل الصليبيين ، يمكن الرجوع إلى المؤرخين الآخرين المعاصرين والمشاركين في أحداث الحصار .

بداية لم نعثر في أي مصدر من المصادر المعاصرة للأحداث أو المتأخرة عنها عن أي ذكر لهذا الحلم المقدس ، أي أن فوشيه الشارترى يكاد يكون قد انفرد بذكر هذا الحلم . وذلك على الرغم من أن المصادر الأوروبية الأخرى المعاصرة للأحداث لم يكن أصحابها أقل تعصباً من فوشيه الشارترى . لكن هذه المصادر الأوروبية قد أظهرت الدافع الحقيقي من وراء خيانة فيروز . يقول المؤرخ المجهول^(٢) : " كان هناك قائد تركي الجنس اسمه فيروز قد توثقته عرى الصداقة المكيّنة بينه وبين بوهيمند الذي طالما راح يلوح له في الرسائل المتبادلة بينهما بمودته ويمنيه بها ... وراح يغريه بالشرف العظيم والثروة الوفيرة ، فوثق فيروز بتلك الأقوال وهاتيك العهود ، وقال : إنني أقوم بحراسة ثلاثة أبراج

(١) هاري بارنز : تاريخ الكتابة التاريخية جـ ١ ص ١١٠ .

(٢) مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس . المعروف بالجستا . ترجمة د / حسن حبشي . ط - دار الفكر العربي - بيروت - لبنان - لم تذكر سنة الطبع ص ٦٦ .

وإني أعده بها عن طيب خاطر ، وسأسلمه إياها يوم يشاء وسأرحب به فيها " .

وقد وافق المؤرخ المجهول مؤرخ صليبي آخر معاصر للأحداث ، هو بطرس توديبود الذي يقول عن ذلك الأمر^(١) : " عرض بوهيمند أن يدخله فيروز إلى أنطاكية ، في مقابل ذلك عرض عليه النورماتدي الدخول في المسيحية ، إلى جانب ثروة عظيمة من أملاك كثيرة ، وقبل فيروز هذه الشروط " . وقد وافقت المصادر العربية المصادر الصليبية في أن الدافع الأساسي للخيانة هو مادي صرف ، من ذلك قول ابن الأثير^(٢) : " لما طال مقام الفرتج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين للأبراج ، وهو زراد يعرف بروزبه ، وبذلوا له مالاً عظيماً وإقطاعاً ، وكان يتولى حفظ برج يلي الوادي " .

غير أن هناك مصدر صليبي آخر — وإن كان متأخراً لكن مشهود لصاحبه بالدقة نحواً ما — هو وليم الصوري ، وقد ذكر سبباً آخر للخيانة يهدم رواية فوشيه الشارترى من الأساس ، بل ويوظفه من كل أحلامه المقدسة، قال فيها^(٣) : " جرت حادثة قرب هذا الوقت شدت من عزم فيروز على السير قدماً في المؤامرة التي دبرها، ذلك أنه بينما كان مشغولاً أشد الانشغال بأداء ماتفرضه عليه واجباته الكثيرة التي يقتضيها وضعه في بيت مولاه — وهو حراسة برج الأختسين — إذ بأمر عاجل لاتدر به أرسل ولده الشاب إلى داره ، إذ ما كان الفتى يبلغها حتى

(١) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس : ص ١٨١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . ط — دار صادر — بيروت — لبنان سنة ١٩٧٩م جـ ١٠ ص ٢٧٤ .

(٣) وليم الصوري : الحروب الصليبية . ترجمة د / حسن حبشي . ط — الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩١م . جـ ١ ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

طالع منظراً مشيناً فاضحاً حين شاهد أمه بين نراعي أحد كبار الأتراك في وضع مزر أسخطه غاية السخط ... فاتكفاً سريعاً إلى أبيه وأخبره بالفضيحة . فحنق فيروز حنق الزوج المثلوم في شرفه، ثم أرسل ولده إلى القائد بوهيمند يخبره أنه لن يقصر في شيء من جانيه ، بل إنه موف بما عاهده به ، وموعدهما الليلة التالية " .

وبناء على رواية وليم الصوري الآتفة الذكر تتضح الحقيقة أكثر في دافع فيروز لهذه الخيانة ، ويمكن أن نتصور ونرسم معالمها بأن الدافع للخيانة كان الطمع في حفنة من الدنانير والدراهم ، ويبدو أنه تردد في التسليم بدافع الخوف ، ثم حدثت الخيانة الزوجية ، فعالج الخيانة بخيانة أكبر ، وبدلاً من أن ينزل العقاب بزوجه ، عاقب كل سكان المدينة بتسليمها لجحافل الصليبيين .

حلم اكتشاف الحرية المقدسة

لقد وفي فيروز الزراد بوعدة للأمير بوهيمند ، فما أن أطلت شمس آخر جمادى الأولى سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٨م حتى كانت راية بوهيمند الحمراء ترتفع على الأسوار ، معنة سقوط أنطاكية ، وانطلق الصليبيون عند دخولهم إليها يعملون فيها نهباً وسلباً وقتلاً ، بدون وعي ، فلم يغفوا عن النساء والأطفال والمسنين ، وقد تمكن من الهرب إلى القلعة ، نحو الثلاثة آلاف رجل ، تحصنوا بها .^(١)

وكان ياغي سيلان حاكم المدينة قد أطلق الاستغاثة عند مجيء الصليبيين إلى أنطاكية ، فكان لها صدى بعيد في البلاد الإسلامية ، فاستجاب لها بعض الحكام المسلمين ، فقد أمر السلطان السلجوقي بركياروق ، نائبه في الموصل ، الأمير كربوغا تجهيز جيش إسلامي بغية تقديم النجدة لأنطاكية ، فعمل هذا الأخير على اتخاذ ما يجب عمله لهذا الغرض وزحف على رأس قوة ضخمة من الموصل باتجاه أنطاكية ، لكن القوات الإسلامية وصلت إلى أنطاكية متأخرة ، إذ كانت هذه المدينة قد فتحت قبل يوم واحد من قبل الصليبيين ، وكان السبب في هذا التأخير إقدام الأمير كربوغا على محاولة الاستيلاء على مدينة الرها التي أصبحت صليبية ولكن دون فائدة ... وبعد أن أخذت الجيوش الإسلامية مواقعها تحت أسوار أنطاكية ألقت الحصار الشامل عليها من جميع جهاتها .^(٢)

(١) سعيد برجلوي : الحروب الصليبية . ص ١٣٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٣٩ - ١٤١ .

وما فتئ الصليبيون الذين كانوا يحاصرون أنطاكية بالأمس أن وجدوا أنفسهم محاصرين في المدينة التي احتلوها ، فقد نفذت المؤن والطعام أثناء فترة الحصار السابقة ، وانتشرت المجاعة والأمراض بين صفوف الجيش الصليبي خلال تواجدهم في أنطاكيا ^(١). وكانت المجاعة لا يمكن تحملها ، حتى إنهم تمنعوا بكل صعوبة عن أكل لحوم البشر ^(٢). فأكلوا الأشجار والأشواك وجلود ولحوم الخيول والحمير والبغال والكلاب ، وباتت الأشياء القذرة جداً ، لذينة للغاية ^(٣) . ومات الكثيرون جوعاً بسبب ارتفاع الأسعار وقد عانوا تلك الشدائد قرابة ستة وعشرين يوماً ^(٤). يقول فوشيه الشارترى عن ذلك ^(٥) : " انسحب بعض رجالنا كما سمعتم ، من حصار عظيم الشدة ، بعضهم من الحاجة ، وبعضهم من الجبن ، والبعض الآخر خوفاً من الموت ، انسحب الفقراء أولاً وبعدهم الأغنياء " .

أمام هذا الخوف وهذه المجاعة والموت والهروب الجماعي ، عادت الأحلام والرؤى المقدسة تطل برأسها من جديد ، لإنقاذ الصليبيين من هلاك محقق على وشك الوقوع . يقول وليم الصوري عن ذلك ^(٦) : " بينما كان شعب الرب

(١) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين . ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) أوتو أسقف فريزنغ : المدينتان . ترجمة د / سهيل زكار . نشر ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية - ط - دار الفكر - دمشق - سوريا - لم تذكر سنة الطبع . ج ٢٨ ص ٣٣١ .

(٣) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ - الموسوعة الشاملة . ج ٣٩ قسم ١ ص ٥٩ .

(٤) توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس . ص ٢٢٤ .

(٥) تاريخ الحملة إلى القدس : ص ٥٦ - ٥٧ .

(٦) الحروب الصليبية : ج ١ ص ٣٩٦ .

يقاسي البلاء على هذه الصورة ، إذ بالسيد يتعطف عليهم ويستمع إلى أنينهم ويرسل السلوى من كرسية السماوي " وذلك من خلال حلم اكتشاف الحربة المقدسة .

يقول بطرس توديبود عن هذا الحلم^(١) : " قبل استيلائنا على أنطاكية تمثل القديس أندرو^(٢) لبطرس بارثليميو^(٣) أحد حجاج جيشنا ، وخطبه كما يلي : أيها الرجل الطيب ، أنا الحواري أندرو ، يا بني أنصت إلى هذه الحقيقة ، لو أنك ذهبت إلى كنيسة القديس بطرس بعد أن تدخل أنطاكية ستجد حربة مخلصنا ، عيسى المسيح ، التي جرح بها بينما كان معلقاً بالصليب " واختفى أندرو فوراً بعد هذه الكلمات . ولأن بطرس بارثليميو كان يخشى الكشف عن عظات القديس أندرو . فلم يروها لحاجتنا ، لأنه أدرك أنه قد شاهد رؤيا . وعاد القديس أندرو وسأله : لماذا لم تخبر الحجاج بتعليماتي ؟ ورد بطرس : يا سيدي من ذا الذي سيصدق هذا ؟ وخلال دقيقتين أخذ القديس أندرو بطرس ، وحمله إلى أنطاكية حيث المكان المحتمل لاختفاء الحربة . انظر إلى هذه . هكذا قال القديس أندرو

(١) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس : ص ٢٠٨ .

(٢) القديس أندرو St. Andrew : هو حواري من حواري السيد المسيح ، والاسم في الأصل يوناني لكنه كان مستعملاً بين اليهود في وقت السيد المسيح ، وهو يتمتع بمكانة كبيرة في الإنجيل ، ويصور أندرو دائماً بلحية وشبكة صيد طويلة كصياد سمك .

New Catholic Encyclopedia. Vol 1. P. 402 – 403 . St. Andrew .

(٣) لم يكن هذا الخادم – بطرس بارثليميو – بالغ الأهمية برغم وضاعة أصله ، إنما اشتهر عند زملائه ورفاقه بأنه شخص سيء السمعة ، لا يحفل إلا بالاستمتاع بمباهج الحياة ، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ٣٤٤ .

وهو يسحب الحربة من الأرض ويضعها بين يدي بطرس وقال له : هذه هي حربة سيدنا عيسى المسيح ، التي دفنتها أنا وأخي بطرس الحواري هنا . انظر إليهم ثم أعادها القديس بطرس إلى مكاتها ، ثم خاطب بطرس بارثليميو قائلاً : عد إلى الجيش " .

ثم أفضى بطرس بارثليميو بالسر الذي استودعه إياه الرسول الحواري . فلم يؤمن القوم بما قال ، بل أنكروه قائلين له : كيف تعتقد صحة هذا القول ؟ والواقع أن الخوف كان مستولياً على نفوسهم ، وكانوا يتوقعون الموت بعد لحظة وأخرى ، فذهب بطرس إليهم وأقسم أنه صادق في كل ما قال^(١) . كما أخبر هذه القصة للأمير ريموند^(*) والأسقف أدھيمار^(*) أيضاً^(٢) . ثم تستطرد المصادر الأوروبية المعاصرة للأحداث بقية القصة بأنهم لما سمعوا أقوال الذي نقل إليهم إichاء المسيح على لسان الرسول ، انطلقوا بأقصى سرعة شطر ناحية كنيسة

(١) مجهول : الجستا . ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) غالباً ما استخدم المؤرخون اللاتين والمؤرخون المسلمون اسم كونت سان جيل ، للإشارة إلى كونت تولوز - ريموند - وكانت سان جيل - زمن الحملة الصليبية الأولى - مدينة مزدهرة ، وتقع عند مصب نهر الرون ، ودرج المؤرخون المسلمون على تسمية كونت تولوز باسم الصنجيل، ريموند اجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ص ٥٥ . حاشية رقم (٦) .

(**) الأسقف أدھيمار Adhemar : كان راعي أبرشية لي بوي Le Puy وهو من أوائل الصليبيين تلبية لنداء البابا أوربان في كليرمونت ، وأراد البابا أوربان أن يجعل الحملة كنسية فعين أدھيمار قائداً أعلى وزعيماً أوحده ، وخوله البت في جميع الاختلافات التي تنشأ بين الصليبيين . د / أسد رستم : كنيسة مدينة الله أنطاكية . ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٣) ريموند اجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ص ١٢٧ .

القديس بطرس التي ذكرها^(١). ويكمل ريموند اجيل الرواية قائلاً^(٢): " حمل إثنى عشر رجلاً ومعهم بطرس بارثليميو الأدوات اللازمة ، وبدأوا يحفرون في كنيسة بطرس المبارك وكان من بين الإثنى عشر أسقف أوراج وريموندا جيل كاتب هذه السطور . وظللنا نحفر حتى المساء ، وينس البعض من إخراج الحربة من تحت الأرض ... ولكن بطرس بارثليميو الممتلئ شباباً عندما رأى الإرهاق قد أخذ من رجالنا كل مأخذ ، تجرد من ملابسه الخارجية ونزل الحفرة حافي القدمين وليس عليه إلا قميص ، وأخيراً أظهر لنا الله برحمته المباركة ، حربته^(*) وقبّلت أنا ريموند مؤلف هذا الكتاب سن الحربة ، عندما برزت من الأرض ، ولا أستطيع أن أصف السعادة والابتهاج اللذين غمرا انطاكية ."

باستعراض آراء مؤرخي الحملة الصليبية الأولى بشأن هذه الرؤيا ، وشأن صاحبها نجد أن رادولف أوف كان Raduaf of caen لم يخف تشككه في بطرس وفي رؤياه نفسها^(٣) . في حين يعير ريمونداجيل قصة الحربة المقدسة اهتماماً أكثر مما أعارها المؤرخون الآخرون ، بل ويحكي الأحداث مع المعجزات ليلبس روايته ثوب الحقيقة^(٤) .

(١) مجهول : الجستا . ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس : ص ١٣٣ .

(*) تقول أنا كومنينا على الدوام " المسار " على حين أن اللاتين يقولون " الحربة المقدسة " التي طعن بها المسيح . أنا كومنينا : ألكسياد . ص ٤٥٧ حاشية رقم (٢٥) .

(٣) ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ص ١٣٦ . حاشية رقم (١) .

(٤) المصدر السابق : ص ١٣٥ . حاشية رقم (١) .

ومن الطبيعي أن تكون روايات ريمونداجيل عن الرؤيا أكثر تفصيلاً من روايتي مؤلف الجستا وتوديبود . فمن جاءوا ورووا ما شاهدوه من رؤى كانوا جميعاً من بني جلدته البروفنساليين والذين تبعوا سيده الكونت صنجيل إلى الشرق وهو — أي ريمونداجيل — كان يشاركهم حياتهم اليومية ، وربما كان يجالسهم ليعرف منهم التفاصيل التي سجلها في تاريخه ، هذا إن لم يكن لريمونداجيل دور في اختلاق قصة هذه الرؤى^(١) . فقد كان ريمونداجيل بمساعدة بعض المتواطئين هو الذي خطط ونفذ خدعة اكتشاف الحربة المقدسة في أنطاكية ، ولما وجه إليه هذا الاتهام، كتب تاريخه عن الحملة الصليبية كدفاع عن نفسه ، ولكنه أثناء محاولته تبرأة ساحته ، قد كشف — دون قصد — عن ذنبه .^(٢)

فقد أكد ريمونداجيل نفسه عن عدم تقبل مجموعة كبيرة من الصليبيين لهذه الرزيا وغيرها من الرؤى الأخرى التي ذكرها بطرس بارتليميو بعد ذلك . يقول ريمونداجيل^(٣) : " عندما حكينا هذه الأشياء للأخوة ، قال البعض إنهم لن يصدقوا أبداً أن الرب قد أجرى حواراً مع رجل كهذا ، متغاضياً عن الأمراء والأساقفة ومظهراً نفسه لفلاح جلف أُمي ، بل إنهم تهادوا حتى راحوا يلقون الشكوك حول الحربة المقدسة " .

وقد ذكرت بعض المصادر العربية صراحة بأن بطرس بارتليميو هو من

(١) بطرس توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس . ص ٢٢٠ حاشية رقم (٣٦) .

(٢) ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ص ٣٤ . مقدمة الترجمة العربية .

(٣) المصدر السابق : ص ٢٠٠ .

دفن بنفسه هذه الحربة ، من ذلك قول ابن الأثير ^(١) : " وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان في القيسان - الكنسية - وعفى أثرها ، وأمرهم بالصوم والتوبة ففعلوا ذلك ثلاثة أيام . فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ، ومعهم عامتهم ، والصناع منهم ، وحفروا في جميع الأماكن فوجدوها كما ذكر " . ذلك أن الكاتدرائية - كنيسة القديس بطرس - عند إعادة تطويبها جرى تطهيرها وتنقيتها من كل أثر ، ولعل بطرس بارثليميو ابتكر هذه المسألة بعد عودته إلى أنطاكية ، التي لم يكشف عن تاريخها ، وبذا يصح أن تهيأت له الفرصة لمواراة قطعة من الحديد تحت أرضية الكنسية ، والواقع أن بطرس كان مدعياً كذوباً . ^(٢)

والحقيقة أنه تم اختلاق حلم الحربة المقدسة للخروج من مأزق الحصار الذي كانوا يعانون منه ، إذ لا مفر لهم سوى الخروج للقتال ، ولكن ليس قبل شحن الروح المعنوية لجموع الصليبيين عن طريق الرؤى والأحلام المقدسة ، وقد أكد على هذه الحقيقة العديد من المؤرخين ، يقول وليم الصوري ^(٣) : " كانت هذه هي أحاسيس الجميع الذين لم يعد ثم مفر أمامهم من الخروج من المدينة لمقاتلة العدو ، ولم تقتصر هذه الرغبة على النبلاء وحدهم ، بل كانت تلتهم في نفوس العامة أيضاً " . ويقول المؤرخ الرهاوي المجهول عن ذلك أيضاً ^(٤) :

(١) الكامل في التاريخ : ج ١٠ ص ٢٧٧ .

(٢) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ٣٤٩ .

(٣) الحروب الصليبية . ج ١ ص ٣٩٨ .

(٤) مجهول : المؤرخ الرهاوي المجهول . تحقيق د / سهيل زكار . نشر ضمن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية . ط - دار الفكر - دمشق - سوريا - لم تذكر سنة الطبع ج ٥ ص ٢٤ .

" فأصبحوا يرون أن الموت في المعركة خارجاً أفضل من الموت داخل البيوت كالنساء " .

أما عن قادة الحملة . فقد أظهر كونت تولوز اعتقاده في حقيقتها ، ثم ما لبث أن أبدى ارتياحه فيما إذا كانت رؤى بطرس لازالت حقيقة ، أما بوهيمند^(٣٣) فبالرغم من أن بطرس بارتليميو قد قرر أنه لايد من السماح لبوهيمند بامتلاك أنطاكية ، وذلك بعد وفاة أدهمار بيومين ، فإن بوهيمند أعلن انهائه وتشككه في أن يظهر المسيح أو القديسين لرجل قاسق مثل بارتليميو ، اعتاد ارتياد الحانات والتسكع في الطرقات . كما يتسائل بوهيمند أمام جموع الفرنج عن أي من المؤرخين قد كتب أن الحربة التي طعن بها المسيح قد وصلت إلى كنيسة بطرس في أنطاكية^(٣٤) . أما عن جموع الجيش الصليبي فكان من الطبيعي أن يؤيد انبروفنساليون منهم رؤيات بطرس ، بينما أبدى فرنسيسو الشمال وبقية الجيش تبرمهم من بطرس ورواه .^(١)

أما عن موقف رجال الدين من رؤيا الحربة المقدسة ، فيقول ريموندالجيل نفسه — باعتباره من أكثر المتحمسين لها — عن الأسقف أدهمار^(٢) : " اعتبر الأسقف هذه القصة زائفة " فقد اعتبر أدهمار أن بطرس بارتليميو شخصاً سيئ السمعة ، لا يصح الإطمئنان إليه والثوق به ، ولعله تنكر أنه رأى بالقسطنطينية

^(٣٣) كان الكونت بوهيمند وفرسانه يسخرون من هذه الرؤى . جوتفان سميت : الحلة الصليبية الأولى ص ١٧٨ .

^(٣٤) كانت هناك حربة أخرى بالقسطنطينية . المرجع السابق : ص ١٧٦ .

^(١) ريموندالجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ص ١٣٦ — ١٣٧ . حاشية رقم (١) .

^(٢) المصدر السابق : ص ١٢٠ .

حربة مقدسة ، ظل أمر أصالتها وحقيقتها موضع جدل ونقاش زمنياً طويلاً ، وبفضل خبرته باعتباره من رجال الكنيسة ، لم يثق فيما يصدر عن الجهلاء من الرويات^(١) فقد رفض الأخذ بروى بطرس بارثليميو أدهيمار على الرغم من أنه يمثل الجانب الروحي في الحملة الصليبية الأولى ، وأن مثل هذه الرؤى ، خاصة إذا ما تمثل فيها المسيح وبعض حواريه لراويها ، تقوى جانب الكنيسة ، ومركز أدهيمار نفسه.^(٢)

أما عن تأثير حلم الحربة المقدسة واكتشافها — بغض النظر عن حقيقتها — في الروح المعنوية لجحافل الصليبيين ، فقد انتشر خبر العثور عليها بين جميع المقاتلين الصليبيين انتشار النار في الهشيم ، ودب فيهم حماس غريب ، وامتلات نفوسهم روحانية هائلة ، كما قويت عزائمهم على القتال والفداء^(٣) ، يقول فوشيه الشارترى عن ذلك^(٤) : " وقد استمددنا الطمأنينة والقوة من هذا الاكتشاف وغيره من الإحياءات ، فبعد أن تملكنا الكآبة والوجل أصبح الواحد منا يحب الآخر بكل شجاعة وتحفز على القتال " .

وقد حرص الصليبيون على إذاعة خبر حلم الحربة المقدسة في أوروبا كلها — على الرغم من إثبات زيفه — وذلك لدفع القواعد من الأوروبيين للانخراط في سلك الحملات الصليبية الاستعمارية ، فقد جاء في خطاب زعماء الصليبيين

(١) رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ٣٤٦ .

(٢) ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ص ١٣٥ — ١٣٦ حاشية رقم (١) .

(٣) د / تيسير بن موسى : نظرة عربية على غزوات الإفرنج . ص ٧٦ .

(٤) تاريخ الحملة إلى القدس . ص ٦٥ — ٦٦ .

إلى البابا أوربان الثاني حول الأحداث التي مرت بهم حتى سقوط أنطاكية والذي كتب في ١١ سبتمبر ١٠٩٨ م / ٤٩٣ هـ : وإذا استرحنا لهذا الكشف وبفضل عدد كبير من الرؤى والأحلام المقدسة ، قوى ساعدنا لدرجة أننا بعد أن تملكنا التخاذل والتفاس من قبل ، صرنا وقتذاك نحث بعضنا بعضاً على القتال في شجاعة وإقدام متناهيين .^(١)

وقد أدت هذه الرؤيا إلى رفع مغنويات الجيش الذي عبر عن شجاعته وإقدامه في هجوم استمر يوماً كاملاً ضد قوات الحصار الإسلامية وتفرق الجيش التركي المهزوم واختفى ، ولم يكن هناك جيش إسلامي آخر يمكنه سد الطريق إلى القدس^(٢) . يقول ابن تغري بردي عن معركة فك الحصار بين المسلمين والصليبيين^(٣) : " والعجيب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوات ، حتى إنهم أكلوا الميتة ، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة ، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم " .

ويقول ريمونداجيل مبالغاً في أثر الحربة المقدسة في هذه المعركة^(٤) : " ومع التفوق العددي — أي للمسلمين — فإنهم لم يجرحوا أيّاً من رجالنا أو يطلقوا سهامهم علينا ، لاشك بسبب حماية الحربة المقدسة لنا . وقد كنت شاهداً على

(١) د / قاسم عبده قاسم : الحملة الصليبية الأولى . ص ٢٤٧ - ٢٤٩ .

(٢) يوشع براور : عالم الصليبيين . ص ٥٥ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ط - وزارة الثقافة والإرشاد - القاهرة - لم تذكر سنة الطبع . ج ٥ ص ١٤٨ .

(٤) تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس : ص ١٤٦ .

هذه الحوادث وحاملاً (*) للحربة المقدسة". وبعد هذه المعركة صار الصليبيون على قناعة بأن التفسير الوحيد لتقدمهم الظاهر ، هو أن يد الرب كانت تتدخل لمساعدتهم مادياً ، وأن الرب كان يوافق بالفعل على ربط الحرب المقدسة بالتوبة والحق . (١)

(*) ذكر روبرت الراهب بأن الذي حمل الحربة المقدسة في المعركة هو أسقف لي بوي

Le Puy يقصد بذلك أدهيمار ، وهي رواية غريبة لا تتفق مع إنكاره لفكرة الحربة .

Robert the Monk : historia iheroseolimitana carol sweetenham . crusade texts in translation 11 . Ashgate publishing. England. 2006 . P. 167.

(١) جوناثان سميث : تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية . ص ١٢٣ - ١٢٤ .

تتابع الرؤى والأحلام لفك الحصار عن أنطاكية

لم يكن حلم بطرس بارثليميو – والذي ترتب عليه اكتشاف الحربة المقدسة المزعومة – هو الحلم الوحيد الذي ابتكره قادة الصليبيين من السياسيين ورجال الدين لرفع الروح المعنوية وزيادة الحماسة الدينية عند جحافل الصليبيين المحاصرين داخل أنطاكية من قبل الجيش الإسلامي ، بل توالت الأحلام والرؤى المقدسة من قبل الصليبيين للمساعدة في تخفيف حدة الحصار ، بل والعمل على فكه في أقرب فرصة ممكنة . وكانت هذه عادة الصليبيين طوال فترة الحروب الصليبية ، فعندما يتعرضون للمعضلات ، يلجأون للعصى السحرية المتمثلة في الرؤى والأحلام المقدسة ، للخروج من أي مأزق .

يقول بطرس توديبود عن إحدى هذه الرؤى والتي تعرف باسم حلم ستيفن^(١): "و ذات يوم بينما كان زعمائنا مجتمعين أعلى التل المواجه للقلعة ، إذ صعد إليهم قس يدعى ستيفن وقال : سادتي ، ربما يسركم أن تسمعوا قصتي عما رأيته ذات ليلة بينما كنت مضطجعا في كنيسة القديسة مريم ، أم سيدنا عيسى المسيح إذ ظهر أمامي مُخلص العالم تصحبه أمه مريم ، وبطرس أول الحواريين ووقف المسيح أمامي وظهر فوق رأسه صليب كامل الهيئة وفي الحال خررت ساجداً ، صارخاً ومتوسلاً في ضراعة أن يعيننا على التصدي لحصار هذا الجنس الملعون لنا، الذي حصرنا داخل أنطاكية . ورد السيد على توسلاتي قائلاً : لقد أحسنت مساعدتكم وأنا مستمر في مساعدتكم بدرجة كبيرة ، وفي الحقيقة لقد

(١) تاريخ الرحلة إلى القدس : ص ٢٠٥ – ٢٠٧ بتصرف بسيط .

سمحت لكم بأخذ مدينة نيقية والانتصار في كل المعارك التي خضتموها ، لكن كثيراً من المسيحيين ارتكبوا الفواحش وتساعد النتن إلى عنان السماء . حينئذ ركعت مريم العذراء والحواري المبارك بطرس أمام المسيح مبتهلين أن يقدم عوناً لمن تبقى على قيد الحياة من المسيحيين في كربتهم ، ومن ثم أصدر إلى السيد تعليمات قاتلاً: ستيفن أخبر شعبي أن يرجع إليّ وسأعود أنا إليه ، وبعد خمسة أيام سأمر بأعظم مساعدة ممكنة للمسيحيين " حقيقة لقد أخبرني السيد بذلك ، سادتي ، إن كنتم في شك من حقيقة رؤياي ، فسوف اعتلى برجاً عالياً وألقى بنفسي ، وإذا كتبت لي النجاة فسوف تأخذون بروايتي كحقيقة ، وإذا ما مسني الضر بأي شكل ، فلتضربوا عنقي أو ألقوا بي في نار مشتعلة " .

وقد منع أدهمار القيام بهذا التحكيم — أن يلقى في نار مشتعلة ليدلل على صدق رؤياه — وأمر بإحضار الكتاب المقدس والصليب ، وجعل ستيفن يقسم على صدق ما قال^(١) . وفي تلك الساعة اتفق زعماء الصليبيين أن يقسموا أيضاً بالألا يحاول أحدهم أن يفر أو يهرب من الموت أو إنقاذ حياته^(٢) . وقد ارتفعت السروح المعنوية في الجيش حينما ذاعت أنباء اليمين ، يضاف إلى ذلك أن ما أشار إليه ستيفن من أن علامات رضي الله سوف تظهر بعد خمسة أيام ، أيد دعوى بطرس بارتليميو ، وساد في المعسكر الأمل في النجدة .^(٣)

(١) بطرس توديبود : تاريخ الحملة إلى القدس . ص ٢٠٧ .

(٢) مجهول : الجستا . ص ٨١ — ٨٢ .

(٣) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ٣٤٨ .

وقد أبدى أدهيمار استعداداه لأن يصدق هذه الرؤية ويعتبرها صحيحة ، فالمعروف أن ستيفن كان من رجال الدين المشهورين بالسمعة الطيبة ، يضاف إلى ذلك أنه أقسم على الإتيان أنه يقول الصدق ^(١) . وقد أمر أدهيمار بعد موافقة الجميع بالصوم ^(*) ثلاثة أيام ، وأن يعترف الجميع بخطاياهم بقلب نقى ، وأن يشاركوا بعضهم البعض في الطعام ، فصاموا الثلاثة أيام في خضوع تام ، مجتمعين حول الكنائس راجين رحمة الرب ^(٢) .

لقد استغل بوهيمند بطرس بارثليميو ونبوءته خير استغلال فلم يكتف بدفع الناس للحرب ، بل جعلهم يصومون أيضاً ليحل مشكلة التموين المستعصية ^(٣) . لا ريب أن هذا الصيام المتكرر كان له وقع كبير في نفوس الصليبيين ، فما كان بإمكانهم أن يمتنعوا عن هذا الصيام ، لأن عدم الصيام كان يعني ازدياد حدة مشكلة المجاعة التي كانوا يعانون منها بالفعل ^(٤) .

(١) ارنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ٣٤٧ .

(*) الصوم Fast : في العقيدة المسيحية هو الإمساك الكلى أو الجزئي عن كل الطعام أو الشراب مدة من الزمن ، وفي العهد القديم والعهد الجديد يظهر الصوم إلى جانب الصلاة والصدقة ، كأحد أعمال الدين الثلاثة الأشد تحييزاً ، وهناك الصوم الكبير أو الأربعيني Lent وهو أربعين يوماً ينصرف فيها المسيحي إلى التوبة بالصوم استعداداً لأعياد الفصح . اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي . ص ٣٠٢ .

(٢) Robert the monk : P. 167 .

(٣) د / تيسير بن موسى : نظرة عربية على غزوات الإفرنج . ص ٧٧ .

(٤) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٥٨ .

ويبدو أن حلم الحربة المقدسة ، وحلم ستيفن^(*) الذي وعدهم بالنصر بعد خمسة أيام ، وكذلك حلم الصوم ، لم يفتح الكثيرين من الصليبيين ، ففكر بعضهم في الفرار من أنطاكيا بالفعل ، وهنا تتدخل الرؤى والأحلام المقدسة لمعالجة هذه المشكلة أيضاً .

يقول فوشيه الشارترى عن ذلك^(١) : " في تلك الأثناء أراد كثير من الفرنجة أن يهبطوا ليلاً من الأسوار بالجيال ويهربوا خائفين من الموت جوعاً أو بحد السيف ، وقد ظهر أمام أحد الهابطين شقيقه الذي كان قد مات وقال له : إلى أين أنت هارب يا أخي ؟ اقع ولا تخف ، فإن الرب سيكون معكم في نضالكم . وإن رفاقكم في هذه الرحلة ، الذين سبقوكم إلى الموت ، سيحاربون معكم ضد الأتراك " فأصابته الدهشة الرجل لسماع كلام من مات ، وامتنع عن الفرار ، وأخبر الباقيين بما جرى " . أي أن هذه الرؤيا الساذجة قد تم إذاعتها في المعسكر الصليبي ولم تكن مجرد خبر تاريخي سجله فوشيه الشارترى فيما بعد في كتابه .

وذهب فوشية الشارترى إلى أبعد من ذلك فأدخل الرب في هذه اللعبة كي يعطي هذه الرؤى نوعاً من القداسة والاهتمام ، للقضاء على مشكلة الفرار ، لما لها من خطورة قد تؤدي بحياة الصليبيين جميعاً في أنطاكيا . فيقول في رواية

(*) يضع ريمونداجيل رؤيا ستيفن بعد رؤيا بطرس بارتليميو بليلة واحدة ، في حين يضعها كل من توديبود ومؤلف الجستا قبل رؤيا بطرس بارتليميو . بطرس توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس . ص ٢١٦ . حاشية رقم (٢٩) .

(١) تاريخ الحملة إلى القدس : ص ٦٠ .

أخرى^(١): "في تلك الأثناء ظهر الرب ، غير ناس عباده لكثير من الناس ... ظهر الرب لرجل دين معين كان فاراً لخوفه من الموت . وقال له : إلى أين أنت ذاهب يا أخي ؟ فأجاب: إنني فار ، لنلا يسعفني سوء الحظ وأهلك . فأجاب الرب رجلاً الدين: لا تهرب بل عد وقل للآخرين إنني سأكون معهم في المعركة ، فقد طمأننت نفس صلوات أُمي ، وسوف أكون رحيماً على الفرنجة ، وقد أوشكوا على الهلاك بسبب خطاياهم . دع أملهم في أن يكون ثابتاً وسوف أكتب لهم النصر على الأتراك. دعهم يتوبون وسوف يخلصون لأنني أنا الذي أكلّمك أنا الرب " فرجع رجل الدين في الحال وذكر ما سمع " .

ويقول ريمونداجيل عن ذلك أيضاً^(٢): " وانتشرت قصص الجليات^(٣) التي تظهر لزملائنا - على حد تعبير ريمونداجيل - ورأينا نحن أيضاً إحدى العجائب في السماء ، فقد رأينا نجماً كبيراً معلقاً فوق أنطاكية لوقت قصير ، ثم يفتت إلى ثلاثة أجزاء ويسقط داخل المعسكر التركي ، وتشجع الصليبيون إلى حد ما . وترقبوا بلهفة اليوم الخامس الذي أعلن عنه الكاهن " ولا عجب في مثل هذه الروايات لأن مؤرخي العصور الوسطى نظروا إلى الحياة نظرة بدائية مليئة

(١) تاريخ الحملة إلى القدس : ص ٦٠ .

(٢) ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ص ١٣٣ .

(٣) معنى التجلي في اليونانية : ما تومورنوسيس ، أي بدا الشكل ، وهو ظهور شخص في شكل (مورفي) يختلف عن شكله العادي ، وتشير هذه اللفظة إلى الآلهة الذين يظهرون في شكل بشري ، كما في الميثولوجيا - الأساطير - اليونانية والرومانية . الفغالي : المحيط الجامع ص ٣٢٢ .

بالأوهام والخرافات ، مما جعلهم غير مسئولين عما يكتبون ، ولم تكن هناك علوم طبيعية يستندون إليها في مقاومة الخرافات والمعجزات ، وكذلك لم يكن هناك علم اجتماع يمكنهم من نقد أوضاع المجتمع الذي يعيشون فيه. ^(١)

غير أن الصليبيين في أنطاكية تشجعوا ، واشتدت عزيمتهم عندما تناقلوا فيما بينهم أنباء ظهور المسيح ، والعدراء مريم ، والقديس بطرس ^(٢) والقديس أندرو ^(٣)، فقد ظهر القديس أندرو تسع مرات على الأقل لبطرس بارتليميو ، وقد أبلغه القديس أندرو أثناء تلك الزيارات أن الله أحب الصليبيين ، وأنه قد اختارهم من دون البشر جميعاً ، وأن القديسين سيعودون للحرب بجانبهم . ^(٤)

وعلى الرغم من أن الرؤى كانت تحدث للمسيحيين الشرقيين واللاتين أيضاً وتحدث على نطاق واسع بين طبقات الصليبيين ، فإن عدد الرؤى التي شاهدها صليبيون من جنوب فرنسا وإقليم بروفنس لا يقل عن ست رؤى ، كلها لأتباع ريموند السانت جيلي ، وأدهيمار ، ومن بين الذين شاهدوا رؤى ، أسقف أبت Apt ، القس سيمون ، وشاهد قس آخر ست رؤى اسمه بطرس دزيدريوس

(١) هاري بارنز : تاريخ الكتابة التاريخية . ج ١ ص ١٤١ .

(٢) بنت روما زعامتها على أساس النظرية البطرسية Petrine Theory وهذه النظرية تقول: إن بطرس باعتباره أمير الرسل قد عهد إليه " أي البابا " بالسلطة العليا على الكنيسة ، وقد سلم بطرس مكان الصدارة هذا لخلفائه أساقفة روما . د / محمود عمران : حضارة أوروبا العصور الوسطى . ص ٩٧ .

(٣) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١١١ .

(٤) المرجع السابق . ص ١٩٢ .

Peter Desiderius وشاهد بطرس بارثليميو ثلاث عشرة رؤيا .^(١)

وقبل أن يخرج الصليبيون إلى قتال كربوغا . قام الأسقف أدهيمار بإلقاء خطبة على الصليبيين وهو ممسك بالحربة المقدسة في يده اليمنى وفتح فمه وقال لهم : " كلنا أخوه وأبناء للرب ، ومرتبطين بالحب الروحي ، لذلك دعونا نحارب سوياً ، لنحمي أرواحنا وأجسادنا ، وتذكروا ، كم عانيتهم لتكفروا عن خطاياكم ، لأن الرب رسم خطة مناسبة لكم ، وذلك من خلال الرؤى التي أرسلها لكم . فلماذا الخوف ؟ فلن يمسكم أي حظ سيء ، فالرجل الذي سيموت هنا سيكون أسعد مما هو فيه الآن ، لأنه سينال المتعة الخالدة في الحياة الخالدة . إن الرب أرسل لكم جحافل القديسين لينتقموا لكم ويحاربوا معكم ولينصروكم على أعدائكم ، وسوف ترونهم اليوم بأعينكم عندما تحاربون ، وسيحدثون جلبة عندما ينزلون ، فلا تخافوا من هذه الأصوات ، بل يجب أن تعادوا على رؤياهم لأنهم جاءوا لمساعدتكم ، لكن عيون الأعداء ستضعف حين ترى جنود السماء . لذا تقدموا نحو الأعداء باسم الرب يسوع المسيح ، وسيكون الرب القوي معنا "^(٢) وقد أمسك أدهيمار بالحربة المقدسة في يده اليمنى على الرغم من عدم تصديقه لها ؛ لأن الموقف العام كان يقضي عليه فعل ذلك .

إن هذه الرؤى إنما تعكس عن مدى السذاجة الدينية التي اتصف بها فرنج الحملة الصليبية الأولى — كما اتصف بها فرنج الحملات الصليبية الأخرى — وإيمانهم بالمعجزات والخرافة ، الأمر الذي استغله ريمونداجيل — باعتباره من

(١) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٨٤ .

(٢) Robert the monk : P. 169 .

أكثر المؤرخين رواية لهذه الرؤى - والمجموعة التي جاء هو على رأسها من المتحمسين الصليبيين الذين أفادوا من حسن نية وخزعات الفرنج وسذاجتهم الدينية ، ليخطط مع هؤلاء المتواطئين ، وينفذ خدعة الحرب المقدسة في أنطاكية . (١)

(١) توديبود : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس . ص ٢٢١ . حاشية رقم (٣٦) .

فك الحصار عن أنطاكية وقاتل الملائكة والقديسين

لم ير الصليبيون بدأ والحالة هذه ، من مجابهة المسلمين ، وقتالهم ،
لوضع حد للحصار المضروب عليهم والآخذ بخناقهم ، مهما كانت النتيجة فهبوا
في الصباح للتجمع أمام باب المحمرة ، ثم الخروج من المدينة بصورة متتابعة ،
كل فرقة بعد الأخرى ... ولما بدأ الصليبيون بعبور النهر ، وقبل أن تصبح
جموعهم على ضفته اليمنى ، حيث يصكر الجيش الإسلامي ، أشار بعض الأمراء
على الأمير كربوغا ، بوجوب مهاجمة كل فرقة ، أثناء خروجها على تلك الصورة
منفردة ، فرفض الأخذ برأيهم ، وهكذا فانت الفرصة على المسلمين ، بسبب تغت
قائد جيشهم كربوغا ، وتفرد به برأيه ، فآدى إلى إفساح المجال لتلك الكتائب
للخروج سالمة من المدينة ، وبالتالي للتجمع كتلة واحدة ، مما مكن الفرنجة من
إحراز النصر على جيش كربوغا ، ولم يكتف الصليبيون بهذا النصر الذي أحرزوه
أمام المدينة ، إنما راحوا يتعقبون فلول الجيش الإسلامي المنهزم ، ويعملون
السيف في كل من يقع في أيديهم .^(١)

على الرغم من أن النصر الذي حققه الصليبيون على المسلمين ، يرجع
في الأساس إلى الخطأ العسكري الذي ارتكبه قائد الجيش الإسلامي كربوغا ،
بتغته واستبداده في الرأي ، إلا أن الصليبيين يعزون ذلك النصر إلى شيء آخر ،
هو وقوف جيوش من الملائكة والقديسين مع الصليبيين في حربهم ضد المسلمين
أثناء فك الحصار الإسلامي عن أنطاكية .

(١) برجاوي : الحروب الصليبية في المشرق . ص ١٤٦ - ١٤٨ .

بداية كانت الشعوب الأوروبية قبل الحروب الصليبية لديها اتجاه متزايد إلى تقديس كبير الملائكة ميخائيل^(٤) ، الذي روت الأساطير أنه قاد معركة في سبيل الرب في مونت جورجانتو في القرن الخامس الميلادي وقد صار مزاره في هذه البقعة من أهم المزارات التي كان يحج إليها النورمان ... وقد روجت أسطورة قيادة ميخائيل لجيوش السماء للمسؤال القتل : إذا كان للرب يتقبل الخدمة العسكرية من الملائكة فلماذا لا يتقبلها من البشر أيضاً ؟ خاصة المسيحيين .^(١)

يقول أحد المؤرخين الأوروبيين عن سبب اقتصار الصليبيين على المسلمين في معركة فك الحصار الإسلامي عن أنطاكية^(٢) : " ساد الشك حول إلى جانب من سيكون النصر ، لكن حدث فجأة أن شوهد جيش كان مخفياً ، ينزل من الجبال ، وكان مقاتلوه يمتطون خيولاً بيضاء ، ويحملون أعلاماً بيضاء في أيديهم ، وعرف الأمراء من بينهم القديس جرجس ، والقديس ديمتريوس والقديس ميركوريوس Mercurius ، وبعث هذا المشهد الذي أروعب المسلمين آمالاً جديدة في نفوس الصليبيين ، ولم يرههم الجميع ، بل فقط الذين سمح للرب لهم بمشاهدة مقاصد السرية ، ورأى بعض رجالنا أيضاً ملائكة يطفرون في الهواء ، ويرسلون صواعق محرقة على الفارين " ويضيف بطرس توديبود على الرواية السابقة بأنه عندما شاهد رجالنا هذا الجيش — من الملائكة والقديسين — أصابهم

(٤) ميخائيل Michael : أكبر الملائكة في التقليد اليهودي والمسيحي ، ويصور بصورة حلمي إسرائيل ، ورئيس الملائكة في محاربتهم للشيطان . اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي ص ٤٩٥ .

(١) د / قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيدولوجية . ص ٣٩ .

(٢) روجر أوف ويندوفر : ورود للتاريخ . الموسوعة الشاملة . ج ٢٩ قسم ١ ص ٦٧ .

الذهول ، حتى أدركوا أن هذه هي المساعدة التي وعدهم بها المسيح ، تماماً كما تنبأ القس ستيفن.^(١) فقد كانت المساعدة الإلهية نقطة التحول في الحملة الصليبية الأولى والانتصار الذي تحقق في أنطاكية في ٢٨ يونيو ١٠٩٨ م / ٤٩٢ هـ — ، كان بالنسبة لكثير من الصليبيين قد تم بمساعدة من جيش من الملائكة والقديسين وأشباه موتاهم .^(٢)

وكان هذا الحدث وراء ظهور صورة القديس جورج على عملات ولاية أنطاكية بعد خضوعها للصليبيين ، وفي أوروبا ظلت مساعدة القديس جورج للحملة الصليبية الأولى موضوعاً للرسومات والتماثيل لعشرات السنين^(٣) . وهذا يدل على مدى استغلال الصليبيين لهذه الرؤى والأحلام للتلاعب بالعواطف الدينية عند السذج من أبناء الغرب الأوروبي لدفعهم للالتخراط في سلك الحروب الصليبية الاستعمارية.

لقد كانت أكثر القصص غرابة هي التي قالت ، إن جيشاً من القديسين والموتى الصليبيين شاركوا المسيحيين في معركة أنطاكية ، وأن هذا الجيش قدم التحية للحربة — المقدسة — عند مزورها ، وذلك بأن نكس لها بيارقه وأعلامه^(٤) فغلى الرغم من أن المؤرخ الشهير وليم الصوري كان من مؤيدي حلم الحربة المقدسة ، إلا أنه اعتبر من قال بأنه رأى الملائكة في معركة أنطاكية أو قبلها هو

(١) تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس : ص ٢٣٠ .

(٢) جوناثان سميث : تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية . ص ١٢٣ .

(٣) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٤) المرجع السابق : ص ١٧٧ .

مجرد ادعاء، يقول عن ذلك ^(١): " كان هناك البعض الذين ادعوا أنهم رأوا رؤيا العين أشباح الملائكة ، والرسل الطوبائيين ، وكان ادعاؤهم هذا تعزيزاً لتقوية إيمانهم بحلم بطرس — بارتليميو — فارتفعت نفسية الناس القاتلة الخائفة ارتفاعاً عجبياً".

أما عن حقيقة قتال الملائكة مع الصليبيين في معركة فك حصار أنطاكية فقد كانت عبارة عن خطة بارعة هيأها بوهيمند ، فأثناء المعركة أخرج عدداً من الفرسان من تل مقابل ، يلبسون ثياباً بيضاء ويحملون صليباً ويمتطون خيولاً بيضاء وحسب الخطة خرج من بين صفوف الجيش الصليبي صوت يقول : إن الملائكة ومعهم جميع القديسين نزلوا من السماء لمساعدة إخوان الصليب ، فازدالت نفوس القوم اشتعالاً وقد راغت أبصارهم ، وارتدت سحنهم ، وأخذوا يتسابقون للموت ^(٢) . فلم يكن هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير في ملحمة " الحرب المقدسة " أكثر من إشاعة أنباء بنص الرؤى المقدسة . واشترك القديس جورج في المعارك . ^(٣)

(١) الحرب الصليبية : جـ ١ ص ٣٩٧ .

(٢) د / تيسير بن موسى : نظرة عربية على غزوات الإفرنج . ص ٧٧ .

(٣) د / قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية . ص ١٦٩ .

حلم الهجوم على عِرْقَة^(*) واختبار النار

لما استتب الأمر للصليبيين في أنطاكية ، أقدم بوهيمند ، على وضع يده على قلعتها بعد أن أخرج منها قوات ريموند دي سان جيل وجود فرى وغيرهما من القادة الصليبيين ، وعندئذ عاد النزاع يذر قرنه بين القائدين الصليبيين : بوهيمند وريموند ، كعادتهما^(١) . وفي الثالث من أغسطس ١٠٩٨م / ٤٩٢هـ . تدخل القديس أندرو — كالعادة — في النزاع القائم بشأن امتلاك أنطاكية من خلال بطرس بارتليميو وأحلامه ، وانحاز إلى جانب ريموند السانت جيلي^(٢) . حيث وقف أندرو المبارك أمام الشاب الذي كشف عن الحربة وقال له : انظر ، إن الله قد أعطى الحربة للكونت ، وفي الحقيقة ، أنه قد حفظها له وحده عبر العصور ، كما جعله قائداً للصليبيين ، على شرط أن يُكرّس نفسه لله .^(٣)

فمع وجود الانقسام بين الصليبيين ، وعدم وجود قائد قومي بينهم ، كان لابد من وجود لجان تنظم أمورهم ، فكانت هناك لجنة تضم كبار السادة ، تتولى شئون الحرب الصليبية معظم الوقت ، بيد أنه لا أحد من هؤلاء الرجال الكبار كان واثقاً من قوته ، كما لم يكن أحد منهم متأكداً من ولاء أتباعه له . إذ كان في استطاعتهم الانصراف عنه والانضمام إلى غيره بسهولة ، وكان أدهيمار يسيطر

(*) عِرْقَة : بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ ، وهي آخر عمل دمشق ، وهي على سفح جبل بينها وبين البحر نحو ميل ، وعلى جبلها قلعة . الحموي : معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٩ .

(١) برجايو : الحروب الصليبية في المشرق . ص ١٤٩ .

(٢) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٩٣ .

(٣) ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ص ١٣٣ .

على هذه اللجنة ، وفي ليلة العاشر من يونيو ١٠٩٨م / ٤٩٢هـ شاهد ستيفن الفلنسي Stephen of valence المسيح في المنام وأبلغه بأنه : لا يوجد سيد أعلى بينكم ، وإنما على الشعب الثقة في الأسقف أدهيمار أكثر من أي شخص آخر^(١) وهكذا كانت هناك رؤيا تدعم موقف ريموند الساتجيلي ، وأخرى تدعم أدهيمار ، وتضاربت إرادة الرب بين القادة الصليبيين ، مما يعطي شعوراً — بناء على هذه الرؤى — بأن الرب نفسه لا يدري ماذا يفعل ، وهذا أكبر دليل على أن هذه الرؤى والأحلام ، كانت من بنات أفكار اتباع القادة الصليبيين ، وربما يكونون هم الذين أوحوا إليهم بترديد مثل هذه الأحلام .

وفي الأول من أغسطس ١٠٩٨م / ٤٩٢هـ مات الأسقف أدهيمار^(٢) مما أضعف عزيمة الجند ، وتنازع الأمراء حول امتلاك أنطاكية . وفي إحدى رؤى بطرس بارثليميو التي كانت ليلة الخامس من إبريل ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ . أمر المسيح بوجود نظام جديد للعدالة في المعسكر الصليبي مع وجود قضاة من سلطتهم حق مصادرة ممتلكات المذنبين ، وإن كشفت هذه الرؤى عن شيء ، فإتاما تكشف عن مدى القلق الذي ساور الصليبيين العاديين بسبب غياب القانون ، إذ بعد موت أدهيمار لجأ القادة ومعهم أتباعهم إلى عمليات السلب والنهب ، وتبعهم عامة الصليبيين ، حيث كانت الفوضى ثقيلة الوطأة على الفقراء بصفة

(١) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٦٢ — ١٦٤ .

(٢) كان موت المندوب البابوي أدهيمار نتيجة لوباء تفشي في أنطاكية لكثرة الجثث التي لم يتم مواراتها التراب . ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة . ص ١٥٩ . حاشية رقم (٣) .

خاصة ، ممن كانوا لا يتبعون قائداً شهيراً .^(١) غير أن أكثر الرؤى شهرة — بخلاف رؤى النزاع على حكم أنطاكيا — تلك الرؤيا التي شاهدها أنسيلم الريمونتي Anselm of Ribemont إما بالليل أو وقت الظهيرة قبيل مقتله في ٢٥ فبراير ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ ، وعلى وجه الإجمال فقد أبلغت الأرواح رسالتين — من خلال هذه الرؤيا — الأولى هي أن الحرب كانت حقيقة ، والثانية أن رفاق الصليبيين الذين ماتوا بسبب المرض أو على أيدي من أسرهم من المسلمين ، أو في ساحة الوغى ، ذهبوا على الفور إلى الفردوس لأنهم شهداء .^(٢)

ولما طالت المدة ، وتأخر الزحف على بيت المقدس ، بسبب هذه الحوادث، بدأ التملل بين الصليبيين ، من أولئك الحجاج الذين كانوا لا يزالون يتشوقون للوصول إلى المدينة المقدسة ، هدفهم الأول ، فواصل الصليبيون زحفهم إلى المدن الشامية ، وكان منها مدينة (عرقة) المحصنة والتابعة لإمارة طرابلس.^(٣)

فقد أعلن بطرس بارثليميو أنه في ٥ أبريل سنة ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ ، ظهر له المسيح والقديس أندرو والقديس بطرس ، وصرحوا بأنه لابد من القيام بهجوم على عرقة ، غير أن معظم الجيش ازداد تبرماً من رؤيات بارثليميو التي اعتبروها تدبيراً سياسياً من قبل الكونت ريموند الساتجيلي ، إذ أن شطراً من فرنسي الشمال بقيادة قسيس روبرت النورماتدي واسمه أرنولف روز ، أعلنوا

(١) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٦٤ - ١٦٥ بتصرف بسيط .

(٢) المرجع السابق : ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٣) براجوي : الحروب الصليبية . ص ١٥٤ - ١٥٧ .

وقتذاك صراحة عدم اعتقادهم في حقيقة الحربة المقدسة ، وأشاروا إلى أن أدهيمار أسقف لي بوى لم يقتنع بها^(*) مطلقاً^(١) . فقد كان الصليبيون أمام عرقة منقسمين في الرأي بشأن مواصلة حصار المدينة ، أو الاندفاع صوب بيت المقدس ، وكان ريموند السانجيلي رافضاً فك الحصار عن المدينة وليس من المدهش أن يرى بطرس بارثليميو رؤيا تعطي تأييداً مقدساً لوجهة نظر ريموند المذكور .^(٢)

وقد خصص ريمونداجيل جزءاً كبيراً من تاريخه ليسرد رؤيا بطرس بارثليميو ، وفي حصار عرقة ، يبدو أن رؤيا واحدة لم تكن تكفي ، فروى ريمونداجيل رؤى آخرين غير بطرس بارثليميو . ربما ليزيد من حماس الفرنج في محاولتهم للاستيلاء على تلك المدينة الإسلامية الصغيرة ، التي كلفت المقاومة التي أبداها أهلها ، الصليبيين الكثير من الأرواح والعتاد ، إلى جانب الوقت والجهد دون طائل.^(٣)

^(*) لم يغفر بطرس بارثليميو مطلقاً لمندوب البابا أدهيمار ما أظهره من عدم الاعتقاد في رؤياته ولم يلبث أن انتقم لنفسه بعد يومين من وفاته ، إذ أعلن أن القديس أندرو زاره مرة أخرى وظهر له في هذه المرة ، وبصحبه أدهيمار ، وصرح أدهيمار أنه نال العقاب بسبب عدم تصديقه ، بأن أمضى في جهنم الساعات الواقعة بين وفاته وبين ظهوره في الرؤيا .
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ٣٦٠ .

^(١) المرجع السابق : ج ١ ص ٣٨٥ .

^(٢) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٨٦ - ١٨٧ .

^(٣) ريمونداجيل : تاريخ الفرنجة . ص ٢١٢ . حاشية رقم (٢٠) .

أخذ بطرس بارثليميو يروج قصة حلمه الجديد ، ولكن هذه المرة وجد الجميع أن ثقب هذه الكذبة متسع لا يمكن رتقه ، فارتفعت الأصوات تكذب بطرس وتكذب قصة الحرب المقدسة ، وطلب منه إن كان صادقاً أن يدخل امتحاناً على الطريقة الجرمانية .^(١)

فقد أثير من جديد موضوع الحرب التي عثروا عليها في أنطاكية ، وتساءلوا : أحقاً هي الحرب التي فجرت الدم والماء من جنب المسيح ؟ أم أن الأمر كله مجرد خدعة ؟ وتشكك الناس في الخبر ، بل وتبلبلت خواطر القادة فأكد البعض أنها كانت نفس الأداة التي اخترقت جنبه ، وهو مرفوع على الصليب ، وما كان كشفها إلا أن العناية الإلهية قد أرادت أن تشد عزائم الناس ، وقال آخرون بل هي برهان صحيح على خبث الكونت وأنها حيلة احتال بها لخدمة مآربه . كما قالوا : إن المؤلف الحقيقي لهذه القصة التي صارت مثار جدل إنما هو رجل اسمه " أرنولف " وكان صديقاً لكونت نورماتدي ، وكان يحيا حياة فاسقة شهوانية ، ويوجد اللذة في إثارة النزاع بين الناس .^(٢)

ظلت هذه المسألة موضع جدل طويل بين الحجاج حتى انتهى الأمر أخيراً بقيام بطرس (بارثليميو) الذي زعم أنه قد أوحى إليه بخبر الحرب ، وسأل القوم أن يوقدوا ناراً كبيرة ، وقال لهم إنه بعون الرب سيبيد شكوك المشككين عن طريق التحكيم الفعلي للنار^(٣) وسيؤكد لهم — رغم ظنونهم — أن الوحي الإلهي

(١) د / تيسير بن موسى : نظرة عربية على غزوات الإفرنج . ص ٧٨ حاشية رقم (١) .

(٢) وليم الصوري : الحروب الصليبية . ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥ .

(٣) جرى اختبار النار في يوم الجمعة الحزينة ٨ أبريل سنة ١٠٩٩ م / ٤٩٣ هـ . رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ٣٨٦ .

هو الذي كشف عن هذه الحرب ، عزاء للناس وسلوى لهم ، ومن ثم أوقدت نار عظيمة أثارت حرارتها خوف الواقفين حولها ، وكان ذلك يوم الجمعة السابق لعيد القيامة المجيد، وفي هذا اليوم اجتمع الناس قاطبة ليشهدوا التجربة الحية بشأن هذا الموضوع الهام، فتطوع لدخول هذه التجربة الشديدة الخطورة الرجل المدعو " بطرس بارثليميو" وكان خورياً قليل الحظ من التعليم ، قد أجمع الناس على سذاجته وإخلاصه ، وتقدم حاملاً في يده حربة المسيح ، واقترحم النار فاجتازها ولم يبد للناظرين أن قد مسه ضرر ولا حاق به أذى .^(١)

يقول ريمونداجيل واصفاً حال بطرس بارثليميو داخل النار^(٢) : " ومشى داخل الكومة المشتعلة شجاعة ودون أن يخيفه شيء ومشى بتمهل في وسطها ، وأخيراً ببركة الرب خرج من اللهب ، وحتى يومنا هذا يزعم بعض المراقبين أنهم رأوا هذه العلامة : وهي أن طائراً طار فوق رأس بطرس قبل أن يخرج من قبر النيران"

غير أن المؤرخين الأوروبيين الآخرين يختلفون مع ريمونداجيل — الذي لم يكف عن نسج أكاذيبه حتى آخر لحظة في مصير الحرب المقدسة — في مصير بطرس بارثليميو بعد دخوله النار ، يقول روجر أوف ويندوفر^(٣) : " لكن بما أنه مات بعد ذلك بعدة أيام ، فإن المحنة لم تعط قناعة كاملة للحزب المعارض" ويقول

(١) وليم الصوري : الحروب الصليبية . جـ ٢ ص ٥٥ .

(٢) تاريخ الفرنجة : ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٣) ورود التاريخ : الموسوعة الشاملة . جـ ٣٩ قسم ١ ص ٧٢ .

وليم الصوري عن ذلك أيضاً^(١) : " غير أن عمله هذا لم يفشل فحسب في إزالة الشك من عقول الناس ، بل إنه أثار مشكلة أكثر خطورة ، إذ ما لبث بطرس هذا أن مات بعد أيام قلائل ، مما حد بالبعض لأن يعن أن تجربة النار هذه أدت إلى هلاكه قبل أن يحين أجله ، وأنه كان سبب دمار نفسه لمعاونته على التسديس " وظل اثني عشر يوماً يقاسي آلاماً شديدة ثم توفي متأثراً بجراحه ، وترتب على هذا الاختبار أن الحربة انتقص قدرها جميع الصليبيين ما عدا البروفنساليين ، الذين أقروا أن بطرس اجتاز اللهب بسلام ، دون أن يلحقه أذى غير أنه دفعه إلى النار مرة أخرى ، الجمهور الذي اشتد حماسه ، وزاد حرصه على أن يلمس قميصه المقدس^(٢) . ولا عجب في موقف البروفنساليين من اختبار النار هذا ، فقد ذكر أنفاً بأن لهم أجندة خاصة بالنسبة للحربة المقدسة عموماً .

(١) وليم الصوري : الحروب الصليبية . ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ٣٨٦ .

رؤى وأحلام سقوط بيت المقدس

لم تكن الرؤى والأحلام المقدسة الخاصة بسقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين وليدة اللحظات التي وصلت فيها جحافل الصليبيين عند أسوار المدينة المقدسة ، بل ظهرت هذه الرؤى مبكرة جداً ، ففضلاً عن الرؤى التي تم نسجها في أوروبا قبل قدوم الصليبيين إلى الشرق ، ظهرت العديد من الرؤى عندما كان الصليبيون محاصرون في أنطاكية .

إذ بينما كان الصليبيون محاصرون في أنطاكية من قبل المسلمين ، اشتد الخطب وظهر جلياً أنه لا فائدة إن لم تحصل مساعدة فوق العادة ، لذلك حصلت جملة حوادث ظنها كثيرون أنها معجزة ، ذكر المؤرخون أن قسيساً لومباردياً قام في الوسط وقال : أوحى إلي رؤيا أنه لا تنتهي السنة الثالثة من تلك الحروب إلا بأخذ أورشليم ^(١) . وبعد أن هُزم الجيش الإسلامي وتم فك الحصار عن أنطاكية ، اشتد التعلق والتبرم عند الحجاج وتآقت نفوسهم إلى أن يغادروا أنطاكية التي تأخروا في المقام بها زمناً طويلاً ، وعانوا فيها كثيراً ، وبتحريض من بطرس بارتليميو ورؤيته ، قدموا لسادتهم إنذاراً نهائياً ^(٢) .

وقد حاصر الصليبيون مدينة عرقة ولكن دون فائدة كما ذكر آنفاً . وفي هذا الوقت تجلّى القديس أندرو لبطرس ديزيديروس وقال له : " إذهب وتحدث إلى الكونت وقل له : لا تزعج نفسك أو الآخرين ، لأنه ما لم يتم الاستيلاء على

(١) حيدر الشهابي : تاريخ الأمير حيدر الشهابي . علق على حواشيه د / مارون رعد . ط -

دار الجبل - بيروت سنة ١٩٩٣ م . ج ٢ ص ٤١٦ .

(٢) رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ٣٦٧ .

القدس أولاً ، فلن تتألموا أية مساعدة ، ولا تضايق نفسك بشأن حصار عرقة الذي لم يتم ، ولا تثقل على نفسك بأن هذه المدينة أو غيرها من المدن التي ستصلون إليها في الرحلة ، لم يتم الاستيلاء عليها في الوقت الحاضر ، لأنكم ستخوضون حرباً تستولون فيها على هذه المدينة وغيرها ، وفضلاً عن ذلك ، لا تزج نفسك أو رجالك ، ولكن وزع باسم الرب ما سوف يمنحه لك ، وكن رفيقاً وصديقاً طيباً للأتباع. فإذا فعلت هذا ، فإن الرب سوف يمنحك أورشليم والإسكندرية . ولكن إذا لم تفعل ، فإنك لن تحصل على الأشياء التي وعد بها الرب ، ولا تصلك رسالة منه ، حتى يضعك في مأزق ومحنة لا تعرف إلى الهرب منها سبيلاً " وهكذا تقبل الكونت كلمات القسيس : تقبلها قولاً ولكنه رفضها فعلاً ، لأنه حين جاءته ثروة كبيرة من ملك طرابلس ، لم يكن لديه أي استعداد لأن يعطي منها شيئاً لأحد ، بل إنه كان يثقل على قومه بالضرب والإهانات .^(١)

كان الفصل الأخير في قصة الحملة الصليبية الأولى هو حصار القدس الذي استمر طوال خمس أسابيع (٧ يونيو - ١٥ يوليو ١٠٩٩ م / ٤٩٣هـ -) وتصور الصليبيون أن الحصار سوف يكون عادياً ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن قواتهم لن تتمكن من تنفيذ مهمتها بسهولة ، ولم يكن هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير في ملحمة الحملة الأولى أكثر من إشاعة حدوث بعض الرؤى المقدسة.^(٢)

ففي الخامس من يونيو ١٠٩٩ م / ٤٩٣هـ . حدث خسوف للقمر عند

(١) د / قاسم عبده قاسم : الحملة الصليبية الأولى . ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

(٢) يوشع براور : عالم الصليبيين . ص ٥٨ .

اقترب الصليبيون من بيت المقدس ، وتم تفسير تلك الأمور على أنها بشائر النصر المسيحي ، وقيل آنذاك إنه لو انعكست الآية وحدث خسوف للشمس بدلاً من خسوف القمر ، لكان ذلك نذيراً بهزيمة الصليبيين^(١) ، وبالطبع كان ذلك العصر هو العصر الذي كان الناس يهرعون فيه بحثاً عن آراء المنجمين وتدوينها.^(٢)

وفي أوائل يوليو ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ عندما كان موقف الصليبيين يتزايد حرجاً أثناء محاصرتهم لبيت المقدس ، ظهر أدهيمار - أي شبحه - مرة ثانية للصليبيين - الأولى عندما ظهر لبارثليميو كما ذكر آنفاً - وأبلغهم تعليمات بشأن التقرب إلى الله عن طريق الصوم أو السير في موكب حفاة الأقدام حول بيت المقدس ، وتنبأ لهم بسقوط بيت المقدس في أيديهم بعد تسعة أيام.^(٣)

وكانت هذه الكلمات برداً وسلاماً على الأمراء وعلى الناس جميعاً . وصدرت الأوامر للكافة بأن القساوسة سوف يقودون في يوم الجمعة التالي المسيرة حول المدينة وهم يحملون الصليبان ونخائر القديسين ورفاتهم المقدسة . على حين يتبعهم الفرسان وكل الرجال الأقوياء حفاة الأقدام ، تصاحبهم الطبول والبيارق والأعلام ، والأسلحة^(٤) وقد أولى الصليبيون تكريماً خاصاً لآثار

(١) ربما يكون هذا التفسير من قبل الصليبيين لظاهرة خسوف القمر ، قد بنى على أساس أن القمر يمثل المسلمين ، باعتبار أن المسلمين يعتمدون عليه في التقويم فهو رمز لهم ، وأن الشمس تمثل الصليبيين لاعتمادهم عليها في التقويم فهي رمز لهم أيضاً .

(٢) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى ص ١٧٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢١٢ .

(٤) د / قاسم عبده قاسم : الحملة الصليبية الأولى . ص ٢٦٨ .

القديسين في طوافهم التكفيري الذي سبق الهجوم على القدس^(١) . فقد كان الصليبيون متعصبين متعطشين للدماء ، والأسوء من هذا أن بعضهم كان انتهازياً بحيث استغلوا الحروب المقدسة ، لتحقيق مآرب غير مقدسة .^(٢)

هذا وقد احتشد المسلمون على الأسوار ، وأخذوا يهزأون بهم ، غير أن الصليبيين وجدوا في هذه السخرية المجد والرفعة ، وبعد أن أتموا طوافهم ، صعدوا جبل الزيتون ، وعلى الجبل أخذ يعظم بطرس الناسك^(٣) ، وكان هناك ناسكاً قد سكن في جبل الزيتون فأعطاهم أملاً ونشاطاً ، بإخبارهم بأنهم سوف يستولون على القدس في ذلك اليوم فشجعت هذه الشارات جميعاً الجيش وجعلت العساكر متأكدين من أنهم سوف ينالون النصر .^(٤)

ومع المحاولات الفاشلة لافتحام أسوار المدينة المقدسة بدأ اليأس يتسرب إلى نفوس الصليبيين الذين أثقلتهم فداحة الجهد الذي بذلوه ، فتراخوا في عملهم ورأوا البرج — برج الحصار — يكاد أن يكون قد دمر تعلم التدمير بسبب ما ناله من القذف المستمر ، كما تعالى الدخان من الآلات الأخرى ... فرأى الصليبيون أن خير ما يفعلونه في هذه الظروف هو أن يسحبوا هذه الآلات إلى الوراء قليلاً على نية مواصلة القتال في الغد ... على أنه في وسط هذا اليأس الغامر المطلق جاءت النجدة السماوية للمؤمنين فأسعفتهم بما يرتجون ، إذ تراءى لهم على جبل

(١) ميشيل بالار : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني . ص ٣٦٦ .

(٢) بيريل سمالي : المؤرخون في العصور الوسطى . ترجمة د / قاسم عبده قاسم . ط — دار

المعارف — الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤م . ص ١٣٧ .

(٣) رنسيمن : تاريخ الحروب الصليبية . ج ١ ص ٤٠١ .

(٤) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ . الموسوعة الشاملة . ج ٣٩ قسم ١ ص ٨٠ — ٨١ .

الزيتون محارب لم يره أحد أبداً بعدئذ في هذا الموضع ، وقد راح يلوح لهم بدرع يكاد بريقه يأخذ بالأبصار ، ويشير به إلى العسكر أن يعودوا لمتابعة ما هم فيه من قتال ... فلما رأى الدوق جودفروي هذا الشبح العجيب خفقت جوانحه سرورا وشرع في لحظته ينادي على الناس وكبار القواد بصوت جهوري : أن عودوا لما كنتم فيه ، فعاد الناس جميعهم برحمة الرب إلى ساحة القتال وقد قويت عزائمهم ودبت الحماسة فيهم من جديد ديبياً ، حتى إن من كانوا قد انسحبوا منذ قليل متخنين بجراحهم ، ومن أعيامهم الإرهاق عادوا بعزيمة جبارة وحماسة طاغية.^(١)

قيل بأن أدهمار أسقف لي بوى صاحب الذكرى الخالدة والذي توفي في أنطاكية قد شوهد من قبل عدد كبير من الناس في المدينة ، لا بل أكثر من هذا لقد أكد كثير من الناس من أعظمهم ثقة بأنهم رأوه بأعينهم يتجول مع الأمراء ويقوم بزيارة الأماكن المقدسة ، يضاف إلى هذا ، أن كثيرين آخرين ، من الذين مساتوا في سبيل المسيح أثناء الحج ، قد ظهروا في المدينة أمام الكثيرين ، وهم يزورون بخشوع الأماكن المقدسة .^(٢)

وشهد العديدون من زوار البقاع المقدسة كثيرين ممن ماتوا وجرى عليهم قضاء الرب الذي لا مفر منه ، أقول شاهدتهم الكثيرون في هذا الحج ... وكما حدث للسيد من قيامه من بين الموتى كذلك نام مباركون كثيرون ثم قاموا بالجسد وتجلوا للكثيرين في المدينة المقدسة ... وقد تعدد ظهور هذه الآيات وكثير غيرها مما شابهها لشعب الرب بفضل الرحمة الإلهية وبدت كمعجزات أكثر منها عجائب،

(١) وليم الصوري : الحروب الصليبية جـ ٢ ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ . الموسوعة الشاملة . جـ ٣٩ قسم ١ ص ٨٤ .

لذلك فقد عم الناس فرح في الروح والفكر أنساهم ما كابدوه من الصعاب التي لا حصر لها ، وعدوا أنفسهم سعداء إذا أتيح لهم أن يشاهدوا هذا العطف الإلهي.^(١)

وبعد سقوط بيت المقدس في أيدي الصليبيين نفذ ريموند الساتجيلي بعض التعليمات التي وردت إليه من القديس أندرو عن طريق بطرس بارثليميو — قبل وفاته — وقام بتنفيذها بكل وقار وجهالة إذ أنها منافية للعقل ، ومثيرة للضحك ، فقد كانت تلك التعليمات^(٢) تقضي بأن يعبر نهر الأردن على رمث (طوف) وهو مرتد قميصاً قصيراً وبنطلوناً قصيراً breeches وأن يجدد تعميده بنفسه بنفسه ، ثم يحتفظ بتلك الملابس الداخلية مع الحربة^(٣) المقدسة .

عندما أصبح الصليبيون مدركين لعظمة انجازاتهم اعترفوا بأن التفسير الوحيد لنجاحهم ، هو وجود قوة مقدسة تدخلت مادياً لمساعدتهم وكان ظهور العلامات في السماء واكتشاف الآثار المقدسة ، وظهور أرواح الموتى وتحركها في شكل جسدي ، وتحدثها لأشخاص لهم المقدرة والاستعداد على مشاهدة الرؤيا Visioneries أدلة على وجود هذه القوة المقدسة .^(٤)

(١) وليم الصوري : الحروب الصليبية . ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) كان هناك اهتمام شديد بأداء الطقوس الدينية بين القوات المتحاربة ، وكان الصليبيون يهتمون اهتماماً شديداً بالتعاليم الدينية التي تحض على تحمل المسؤولية ، وكان رجال الدين يرمنون بهذه التعاليم في صلواتهم على مدى خمسة أيام متصلة ، وشاع أن المسيح أبلغ القس ستيفن الفنسي Stephen of valence بهذه التعاليم في رؤى عام ١٠٩٨ م /

٤٩٢هـ - جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٥٦ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٨٠ .

(٤) جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ٢١٣ .

إن الباحث المتأمل لواقع تاريخ الحركة الصليبية يدرك من فوره أنها ذات طابع تعصبي عنصري ضد كل ما هو غير مسيحي كاثوليكي ، ولذلك فلا عجب أن ارتبط بها طابع دموي لا ينكر وخلال ذلك تم الفتك بعشرات الآلاف من أعدائهم وجاء ذلك وسط موجة عارمة من العداء والكراهية ، والرغبة الجامحة في الفتك بكل من لا يدين بالمسيحية الكاثوليكية ^(١) فقد كان الصليبيون هم الذين ارتكبوا أبشع المذابح بعد اقتحام بيت المقدس ، ثم ذهبوا لكي يؤدوا صلاة الشكر في الضريح المقدس بوجوه تنطق إرهاباً وأياد تقطر دماً . هذا التناقض في سلوكيات الصليبيين يوازيه تناقض آخر في انتماءاتهم الاجتماعية وأفكارهم ، فقد كانوا خليطاً غريباً من المغامرين والأنقياء ، من الحجاج واللصوص ، من اننبلاء والفلاحين ، من المثاليين والهابيين من العدالة ، من الباحثين عن الثروة والباحثين عن خلاص أرواحهم ، كانوا رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً ، من شتى الطبقات ومختلف المشارب تحركهم مجموعة متناقضة ومتداخلة من الأهداف والدوافع. ^(٢)

في غضون هذه الفترة كادت تختفي أخبار المعجزات والروى والأحلام المقدسة ، وبدأت العوامل الدنيوية تفرض نفسها ، وطالما كانت الحملة تسير بسهولة وتحرز انتصاراتها في يسر وسهولة ، كانت تختفي هذه الأخبار التي كانت من أهم ملامح الأيديولوجية الصليبية ، فإذا جابهت أفراد حملة مشكلة ما ، أو تهددهم المخاطر ، أطلت عليهم من جديد أنباء الروى الإعجازية والأحلام

^(١) د / محمد مؤنس عوض : الحروب الصليبية . السياسة — المياه — العقيدة . ص ٤٢ .

^(٢) د / قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية . ص ٧٠ — ٧١ .

المقدسة، والظواهر الخارقة والمعجزات تذكرهم بالأيديولوجية التي نسوها في خضم صراعاتهم ومنافساتهم وضعائهم التي ميزت كثيراً من الأحداث التي جرت على الطريق إلى القدس .^(١)

^(١) د / قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية . ص ١٤٨ .

رؤى وأحلام الذخائر المقدسة (*)

لم يكن الحج في المسيحية فريضة مهمة ، ولم يصل إلى أهمية الحج إلى المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة ، بيد أن الحج المسيحي بعد فترة من الوقت أصبح جزءاً مكملاً للممارسة المسيحية^(١) . وبدأت مواكب الشكر ومواكب التوبة في الظهور في الكنيسة بعد عام ٣١٣م لتصبح جزءاً من العبادة ، وانتشرت أيضاً عادة زيارة الأماكن المقدسة وكانت في بداية الأمر لزيارة الأراضي المقدسة في فلسطين ، ثم امتدت لتشمل زيارة قبور القديسين المشهورة .^(٢)

فكانت ممارسة الحج على نطاق واسع تعبيراً مهماً عن حالة التجديد والإحياء الكنسي والروحي الإصلاحية الذي قامت به الأديرة الكلونية^(*) . وكان

(*) الذخائر المقدسة Holy relic : هي عظام القديسين ، أو أي شيء آخر قد خلفوه وراءهم ، أو أي هدف قد حققوه وأثر في حركة التاريخ ، كذلك ما ألفوه من كتب وأسسوه من مدارس

Gina Burke : The justification for relic thefts . P 4

(١) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين . ص ٢٣٣ .

(٢) إيرل كيرنز : المسيحية عبر العصور . ترجمة / عاطف سامي برنابا . ط - دارنوبار -

القاهرة سنة ١٩٩٢م . ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(**) ديركلوني : في سنة ٩١٠م / ٢٩٨هـ أسس وليم الأول كونت أقطانيا ديركلوني بدلا من

الأديرة البندكتية - نسبة إلى القديس بندكت مؤسس الرهبنة في أوروبا - التي كانت قد

وصلت إلى حال من الترهل والتردي ، وبنهاية القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري

كانت الأديرة الكلونية قد دخلت في علاقات قوية مع البابوية ، وقد اعتبر الكلونيون أنفسهم

حماة الضمير المسيحي ، كما قاموا بتنظيم رحلات الفرسان الفرنجة عبر جبال البرانس

للقتال ضد المسلمين في الأندلس ، وأنشأوا عدة تنظيمات وبيوت ضيافة لخدمة حركة الحج

إلى فلسطين . د/ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية ص ٥٠ حاشية رقم (٣٧) .

الحج بمثابة عمل تكفيري يعقب حالة شعور بالندم والأسف لارتكاب الذنوب والآثام ، وأصبح الحج ممارسة يحظى صاحبها بالاحترام والتقدير الاجتماعي ووسيلة لإظهار التدين وتوبة للخاطئين . (١)

كانت تقوي المؤمنين في العصر الوسيط تحتاج إلى دلائل محسوسة يمكن أن تستند إليها ، ومن بين هذه الدلائل ، تعتبر الآثار المقدسة موضع اشتهاء عظيم من جانب الحجاج الذين يطلبون شفاعاة الشهداء والقديسين عندما يصلون أمام قبورهم أو آثارهم (٢) . ومن خلال هذه الرفات — أو الآثار — كان يتم التحكم في عقول الناس في أوروبا ، كذلك كانت تستخدم للحماية ضد أي هجوم من الأعداء ، وللحفاظ على القانون والنظام والسلام داخل المجتمع ، كما كانت تؤخذ عليها العهود والمواثيق ، وكانوا يمسخون بها على أسلحتهم ويعانقونها ويقبلونها. (٣)

فقد انتشر استخدام الصور Pictures — وهي نوع من الذخائر — والتمائيل في العبادة بسرعة ، وذلك بسبب زيادة عدد المنضمين إلى الكنيسة من البربر الذين لم ينالوا قدراً كافياً من التعليم والتوجيه . وقد قامت الصور والتمائيل بتجسيد بعض الحقائق الغير مرئية عن الله بالنسبة لأولئك العابدين ، كما كان لها دور في تزيين وتجميل مباني الكنائس (٤) . وكان فرسان الغرب الأوروبي على

(١) يوشع براور : الاستيطان الصليبي . ص ١٧ .

(٢) ميشيل بالار : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني . ص ٣٦٥ .

(٣) Gina Burke : The justification for relic the fts. P.17 .

(٤) إيرل كرنز : المسيحية عبر العصور . ص ١٨٨ .

الجملة ، لا يفهمون من الدين سوى أنه حيلة الذخائر المقدسة ، أو الهبات التي كانوا يغدقونها بسخاء على الأديرة والكنائس تكفيراً عن ذنوبهم، إذ كان التكفير عن الذنوب أيسر لهم من الالتزام بالفضيلة .^(١)

وبما أن الروح القدس قد احتمت بأحد المقابر الأرضية — حسب المعتقد المسيحي — فقد استلهم الرجل البسيط في أوروبا العصور الوسطى فكرة القداسة التي تحملها رفات الشهداء من التجربة السابقة للروح القدس ، ففي الغرب الأوروبي كان الاعتقاد في معجزات وخوارق الذخائر المقدسة إحدى الممارسات الدينية الشائعة هناك تقريباً ، بيد أن هذه المعجزات والخوارق كانت في الغالب ذات سمة أسطورية بعيدة عن التهذيب ... وكانت الكنائس والأديرة تتوق إلى إضفاء الصفة الشرعية على الذخائر المقدسة الموجودة لديها لكي تعضد قداساتها ومكائنها بين قريناتها من الذخائر المقدسة الأخرى .^(٢)

وقد لعبت تجارة " الذخائر المقدسة " دوراً هاماً في إثارة الاهتمام بالأرض المقدسة في الغرب الأوروبي ، وكان الحاج الذي يجلب معه شيئاً من هذه الذخائر المقدسة ، يكسب مجداً ومكانة في عيون أهل بلده . وبطبيعة الحال كانت هناك مواد كثيرة مزيفة في تلك التجارة التي راجت في الغرب الأوروبي برواج الحج إلى فلسطين ، وقد نسجت قصص خيالية كثيرة حول الرحلات والذخائر المقدسة ، مما

(١) د / قاسم عبده قاسم : الدوافع الاجتماعية في الحركة الصليبية . ندوة التاريخ الإسلامي

والوسط مجلد ٢ . ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) يوشع براور : الاستيطان الصليبي . ص ٢١٩ .

زاد في تأجج الجو النفسي المشبع بالأفكار الأفقية والأخروية .^(١) ومن أهم قطع الذخائر المقدسة التي أعراها الصليبيون اهتماماً ما يعرف بصليب الصليبوت^(*) أو الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح حسب الاعتقاد المسيحي .

مع أن القدس لا تمتلك الصليب الحقيقي الذي جرى نقله إلى القسطنطينية في عام ٦٣٥م / ١٤هـ ، إنما تحتفظ فيما تواتر من القول على قطعة منه ، موجودة في كنيسة القبر المقدس . وبعد اختفائها قبل الحملة الصليبية الأولى يعاد اكتشافها في ٥ أغسطس ١٠٩٩م / ٤٩٣هـ من جانب البطريرك أرنولف الشوكي - بطريرك بيت المقدس - على مقربة من القبر المقدس^(**) ، في ظروف مماثلة تماماً لاكتشاف الحربة المقدسة في أنطاكية ، وجرى الاحتفاظ بهذه القطعة في كنيسة القبر المقدس خلال القرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري ، وبما أنهم كانوا يحملونها أثناء المعارك ، فقد ضاعت خلال معركة حطين سنة ١١٨٧م / ٥٨٣هـ^(٢) . يقول ابن الأثير عن ذلك^(٣) : " أخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصليبوت ويذكرون

(١) د / قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ٢٢ .

(٢) الصليب : هو الذي يتخذ النصارى على ذلك الشكل المعروف ولعل كلمة صليب ، بمعنى الرمز الأثير عند النصارى قد أخذت من الآرامية حيث ترد بهذه الصيغة نفسها ، وهي لم ترد في القرآن الكريم . نخبة من العلماء : دائرة المعارف الإسلامية - ط - دار المعرفة - بيروت - لم تذكر سنة الطبع - مادة صليب . ج ١٤ . ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

(**) وجد هذا الصليب مدفوناً في ردهة Atrium كنيسة . جوناثان سميث : الحملة الصليبية الأولى . ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) ميشيل بالار : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني . ص ٣٦٦ .

(٣) الكامل في التاريخ : ج ١١ ص ٥٣٦ .

أن فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح بزعمهم ، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم ، وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك " .

لكن يمكن القول بأنه لا يوجد ما يعرف بالصليب الحقيقي من الأساس، فبغض النظر عن كون اكتشافه مماثلاً لقصة الحربة المقدسة المختلفة ، فإن الشكل الذي قتل عليه المسيح - حسبما يعتقد المسيحيون - مازال محل خلاف بينهم حتى الآن . يقول أحد كتابهم المتخصصين في اللاهوت الأب صبحي اليسوعي: ^(١) " نحن نعلم بأن المسيح تسمر ، لكننا نجهل هل كان صليبه مجرد تاء يونانية أم هل كانت القائمة تمتد عمودياً فوق العارضة الأفقية " فإذا كان المسيحيون لا يعرفون الشكل الذي مات عليه مسيحهم ، فكيف بهم يعرفون كون الخشبة المعثور عليها من الصليب ؟ فإن فعل " الصلب " معروف بأنه وقع على شبيه السيد المسيح عليه السلام حسب الاعتقاد الإسلامي ، وعلى المسيح ذاته حسب الاعتقاد المسيحي ، لكن ليس بالضرورة أن فعل " الصلب " قد حدث على شكل " الصليب " المعروف الآن ، ويبدو أن الرؤى والأحلام الزائفة قد قامت بدورها كالعادة في اللعب بمشاعر الأوروبيين الدينية ، خاصة في أهم الذخائر قداسة عند المسيحيين قاطبة وهو صليب الصلبوت ، والذي يمجده المسيحيون أكثر من تمجيدهم للسيد المسيح ذاته .

(١) معجم الإيمان المسيحي : ص ٣٠٠ .

رؤيا النار في القبر المقدس (*)

يقصد بالقبر المقدس ، القبر الذي دفن فيه المسيح — حسب المعتقد المسيحي — بعد الصلب ، ثم قام بعد اليوم الثالث من بين الأموات^(*) وقد بنيت على هذا الضريح ما يعرف بكنيسة القيامة في القدس ، وقد اشتهر في عصر الحروب الصليبية ، خاصة في عهد الوجود الصليبي في القدس ، رؤيا نار مقدسة تنزل من السماء على مصباح في أعلى الضريح المقدس . وذلك أمام مرأى الجميع . وقد تناقل خبر هذه النار المقدسة بعض المصادر الأوروبية ، على أساس أنها من الأمور الإعجازية الخاصة بالضريح المقدس .

يقول الرحالة الأوروبي بورشارد^(١) : " ولا يوجد ضوء في الداخل — أي في الضريح المقدس — بسبب عدم وجود نافذة تجلب الضوء إليه ، ولكن تم تعليق تسعة أسرجة فوق قبر السيد المسيح " ، وكان من المتبع في كنيسة الضريح المقدس ، وفي جميع كنائس المدينة — القدس — وضع الأضواء

(*) جاء في إنجيل متى بأنه بعدما صلب يسوع : حل المساء ، وجاء رجل غني من بلدة الرامة اسمه يوسف ، وكان أيضاً تلميذاً ليسوع ، فتقدم إلى ببلاطس يطلب جثمان يسوع ، فأمر ببلاطس أن يعطي له ، فأخذ يوسف الجثمان ، وكفنه بكتان نقي ، ودفنه في قبره الجديد الذي كان قد حفره في الصخر ، ودرج حجراً كبيراً على باب القبر ، ثم ذهب " إنجيل متى ٢٧/٥٧ — ٦٠ .

(**) وذلك وفقاً لما جاء في الإنجيل السابق من قول ملاك الرب لمريم المجدلية ومريم الأخرى : اذهبا بسرعة وأخبرا تلاميذه أنه قد قام من بين الأموات " إنجيل متى ٢٨ / ٧ .

(١) وصف الأرض المقدسة : ترجمة د / سعيد البيشاوي . ط — دار الشروق — عمان — الأردن — الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ م . ص ١٣٩ .

الأرضية وانتظار قدوم ضوء من السماء عند فجر عشية عيد القيامة^(١). فقد كان حاملوا الصليب المقدس يطوفون به حول القبر المقدس من ستة إلى سبعة أشواط وكان يصاحب هذا الطواف تعازم تدريجي لأصوات المصلين وابتهالاتهم وأدعيتهم الدينية ، وفي نهاية هذا الاحتفال ، كان يرى ضوء إعجازي يتوهج وينبثق من إحدى اللمبات التي تعلق القبر المقدس.^(٢)

ومن أكثر المصادر التاريخية ذكراً لقصة النار المقدسة التي تهبط على الضريح المقدس ، ما كتبه الرحالة الروسي دانيال الراهب الذي أفرد لهذا الموضوع عنواناً في كتابه سماه " النور المقدس وكيف يهبط على الضريح المقدس The holy light , how it descends upon the holy sepulcher " يقول في مقدمته:^(٣) " أقدم لكم الوصف التالي للنور المقدس ، الذي يهبط على الضريح المقدس ، حيث تعطف الرب علي أنا عبده الشرير وغير الجدير برؤية ذلك. وفي الحقيقة فقد رأيت بعيني الخاطنتين كيف يهبط النور المقدس على ضريح سيدنا المسيح. ويروى كثير من الحجاج بشكل غير صحيح عن هبوط ذلك النور المقدس. ويقول بعضهم بأن الروح الطاهرة تهبط على الضريح المقدس على هيئة حمامة، ويقول بعضهم الآخر بأن برقاً من السماء يضيء المصابيح التي فوق ضريح المسيح. وهذا كله غير صحيح ، حيث أنه لا

(١) ثيودريش : وصف الأماكن المقدسة في فلسطين . ترجمة د / سعيد البيشاوي . ط - دار الشروق - عمان - الأردن - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣ م . ص ٦٨ - ٦٩ .

(٢) يوشع براور : الاستيطان الصليبي . ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة ١١٠٦ - ١١٠٧ م . ترجمة د / سعيد البيشاوي . ط - دار الشروق - عمان - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢ م . ص ١٣٠ .

ترى حمامة ولا برق في تلك اللحظة، ولكن رحمة الله تنزل من السماء بشكل غير مرئي ، وتضيء مصابيح ضريح السيد المسيح " .

ثم يصف دانيال الراهب طريقة الإعداد لهذا الحدث في الضريح المقدس فيقول: ^(١) " سوف أصف لكم الحقيقة كاملة كما رأيته ، في يوم الجمعة المقدس وبعد صلاة المساء ، ينظفون الضريح المقدس ويغسلون جميع المصابيح هناك ، ويملأون هذه المصابيح بالزيت النقي الخالي من الماء ، وبعد وضع الفتائل تترك المصابيح غير مضأة ، ثم يحكمون السداد على الضريح في الساعة الثانية من الليل ، وفي نفس الوقت يقومون بإطفاء جميع المصابيح والشموع في جميع كنائس القدس " .

وتحدث دانيال الراهب أيضاً عن جموع الصليبيين التي كانت تحتشد لرؤية هذه النار المقدسة ، فيقول عن ذلك ^(٢) : " ويملأ الحشد من الناس الفضاء حول الكنيسة ، وحول مكان الصليب، والجمهور المحتشد فظيع ، والاهتياج شديد جداً ، لدرجة أن بعض الأشخاص يختنقون من كثافة الجمهور المحتشد وفي أيديهم المشاعل غير المضأة ينتظرون فتح أبواب الكنيسة ، ويمتلئ كل مكان بحشد كبير من الناس . ويصيح جميع الناس داخل الكنيسة وخارجها بدون توقف ، يصيحون قائلين " كيري اليسون Kyrie Eleison " ارحمنا أيها الرب " . وتكون هذه الصيحة مرتفعة جداً ، لدرجة أن المكان يرتجف ويهتز منها ، وتنهمل سيول من الدموع من قبل المؤمنين ؛ وحتى الشخص الذي يملك قلباً من حجر لا

^(١) رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة: ص ١٣٠ .

^(٢) المصدر السابق : ص ١٣٢ .

يستطيع الامتناع عن البكاء ؛ وكل شخص في هذا المكان يبحث في أعماق نفسه وروحه، ويفكر بذنوبه ومعاصيه ، ويقول سراً لنفسه : " هل ستمنع ذنوبي هبوط النور المقدس ؟ ويبقى المؤمنون يبكون ، بقلب ثقيل ؛ حتى الأمير بلدوين^(٢) نفسه يبدو منكسر الفؤاد ومتواضعاً بشكل كبير ، وينهمر سيل من الدموع من عينيه وتقف حاشيته حوله في تفكير وتأمل " .

عندئذ كان حامل الصليب المقدس يدخل المهجع بتوقير وارتجاف ، ويضع شمعة على النار المقدسة المعجزة العجيبة ، وعندئذ كانت توقد آلاف الشموع من تلك الشمعة الأصلية التي انتقدت من النار المقدسة العجيبة ، وكان هذا الاحتفال أكثر تأثيراً من أي احتفال آخر في المعتقد الشعبي التقليدي للسكان الصليبي وأيضاً للحجاج ... بيد أن هذا الاحتفال والخداع الزائف باسم الدين لم يستمر بشكل غير محدد ، إذ كانت هذه " المعجزة " تحدث فقط طوال فترة الوجود الصليبي خلال المملكة الصنيبية في بيت المقدس أي حتى عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ . وعندما استرد المسلمون مدينة القدس في عام ١١٨٧م / ٥٨٣هـ — بات من العسير الدعوة لمثل هذا الاحتفال . وفي عام ١٢٣٨م / ٦٣٦هـ . أصدر البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١م / ٦٢٥ — ٦٣٩هـ) مرسوماً بابوياً يضع بموجبه نهايةً للطقوس والشعائر اللاتينية .^(١)

(٢) يقصد داتال الراهب بالأمرير بلدوين ، الملك بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ففي عشية عيد الميلاد من عام ١١٠٠م / ٤٩٤هـ جرى حفل تكريس بلدوين في بيت لحم بصورة رسمية ، وتوج ملكاً على مملكة بيت المقدس ، بيد البطريرك دامير ، وكان حينئذ في سن الأربعين . سعيد برجايوي : الحروب الصليبية في المشرق ، ص ١٨٩ .
(١) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين . ص ٢١٥ — ٢١٦ .

غير أن هناك من المصادر الأوروبية من يذكر بأن عملية النار المقدسة كانت تتم بعد تحرير بيت المقدس ، وبالتحديد في عهد صلاح الدين الأيوبي يقول المؤرخ المجهول عن ذلك^(١) : " لما جاء مساء عيد الفصح^(٢) في الرابع من أبريل سنة ١١٩٢م / ٥٨٨هـ . مضى صلاح الدين إلى ضريح السيد الموقر في القدس عساه يكتشف حقيقة النار السماوية التي تهبط من عل بأمر رباني في مثل هذا اليوم من كل عام فتشعل مصباحاً هناك ... وبينما هم كذلك إذا بالنار المقدسة تنزل فجأة أمام أنظار الجميع وتشعل المصباح الذي سرعان ما أخذ يشع الضوء فينعكس على كل ما حوله . وامت الفرحة صدور المسيحيين ، أما المسلمون فقد أخذهم العجب ، وصعقوا مما يرونه من معجزة لم تخف على أحد ، وأراد صلاح الدين أن يتبين حقيقة الأمر ، فأمر بإطفاء المصباح الذي اشتعل بأمر إلهي ، فأطفئ فعاد للاشتعال مرة ثانية بقوة علوية ، ثم جرى ذلك مرة ثالثة " .

لكن باستطلاع المصادر التاريخية الإسلامية ، لا نجد أي ذكر للرواية السابقة أو لأي شيء عن النار المقدسة لا من قريب أو بعيد ، وباستطلاع المصادر الأوروبية الأخرى والتي عاصرت الوجود الصليبي في بيت المقدس لا نجد بها أي ذكر لهذه النار المقدسة مطلقاً . يقول الحاج سايلوف^(٣) : " إن كنيسة

(١) الحرب الصليبية الثالثة : ترجمة د / حسن حبشي . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م . ج ٢ ص ١٥٠ .

(٢) عيد الفصح : هو عيد قيامة المسيح - حسب الاعتقاد المسيحي - اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي . ص ٣٥٥ .

(٣) وصف رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس والأراضي المقدسة ١١٠٢ - ١١٠٣م . ترجمة د/ سعيد البيشاوي . ط - دار الشروق - عمان - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م . ص ٢٤ .

الضريح المقدسة التي تدعى كنيسة الشهيد هي الموضع الأول الذي تمت زيارته ، ليس فحسب بسبب اتجاه الشوارع ، بل لأنها أكثر شهرة من غيرها من الكنائس الأخرى " ولم يتحدث عن النار المقدسة أو غير المقدسة في رحلته .

وذلك مع العلم بأن رحلة الحاج سايلوف تحتل مكانة خاصة بين الرحلات الأوروبية إلى الأراضي المقدسة في فلسطين لعدة اعتبارات منها : كون زيارة الرحالة لفلسطين جاءت في بداية الاستقرار الفرنجي في الأرض المقدسة والاستيلاء على بيت المقدس ، وقد ذكر الرحالة أنه وصل مدينة يافا في أكتوبر سنة ١١٠٢م/٤٩٦هـ ، وبناء على ذلك يكون قد مضى على استقرار الفرنجة في فلسطين نحو ثلاث سنوات وثمانية أشهر .^(١)

كما أن المصادر الأوروبية الأخرى المتأخرة عن الحاج سايلوف ودانيال الراهب ، لم تتحدث عن النار المقدسة مطلقاً ، مثل الرحالة الألماني يوحنا فورزبورغ الذي كان قسيساً في كنيسة فورزبورغ - إحدى المدن الألمانية الواقعة على نهر المين شمال بافاريا - والذي دون رحلته بعد عام ١٢٠٠م / ٥٩٧هـ . وزار كنيسة القبر المقدس ، قبل استعادتها من قبل المسلمين .^(٢)

فمن الملفت للنظر أن يوحنا فورزبورغ على الرغم من كونه رجل دين وكان من الأولى به أن يذكر مثل هذه الأشياء ، لم يورد أي ملاحظة عن النار

(١) سايلوف : وصف رحلة الحاج سايلوف . ص ٥ . مقدمة الترجمة العربية .

(٢) يوحنا فورزبورغ : وصف الأراضي المقدسة في فلسطين . ترجمة د/سعيد البيشلاوي. ط. دار الشروق . عمان - الأردن - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧م . ص ٢١ - ٢٢ . الترجمة العربية .

المقدسة ، وكل ما ذكره قوله ^(١) : " وفي النهاية يوجد سور مستمر مزخرف بأشكال مرسومة لمختلف القديسين بمقياس كبير ، ومضاء بمصابيح عديدة " .

على الرغم من أن دانيال الراهب يعد من أكثر الذين تحدثوا عن النار المقدسة في الضريح المقدس ، إلا أنه بعد أن ذكرها ، يبدو أنه أحس بأن من سيقراً خبر النار المقدسة في كتابه لن يصدقها ، لذلك نجده بعد أن أورد ذكرها يكثر من الحلف والأيمان على صدقها ، يقول عن هذا ^(٢) : " وكل من لم يشارك في تلك السعادة السماوية في ذلك اليوم لن يصدق بيان ما اسجله هنا وما رأيته في ذلك المكان ، إن من الحكمة تصديق الرجال الذين وضعوا ثقتهم في حقيقة هذه الرواية ... إن الشخص الذي يؤمن بالقليل سوف يؤمن بالكثير ، ولكن بالنسبة للشرير فإن الحقيقة والكنب سيلان ، إن الله وضريح المسيح المقدس يشهدان على صحة روايتي ، وعلى صدق شخصي المتواضع ، وكذلك رفائلي من روسيا " بل إن دانيال الراهب في موضع آخر ، يتوسل إلى كل ما يقرأ خبر النار المقدسة في كتابه أن يصدقها ولا يحتقرها . يقول عن ذلك ^(٣) : " إخواتي وأسيادي ، لا تلوموا جهلي وبساطتي ، ومن أجل الضريح المقدس لا تحتقروا هذه الرواية " .

هذا ويمكن إرجاع السبب في كثرة حديث دانيال الراهب عن النار المقدسة إلى تاريخ انتشار الديانة المسيحية في روسيا نفسها ، ففيما بين سنة

(١) وصف الأراضي المقدسة في فلسطين: ص ٦٧ - ٦٩ .

(٢) رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب : ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٣٨ .

٩٤٥م / ٣٣٤هـ ، سنة ٩٦٤م / ٣٥٣هـ ، حكمت مدينة كييف الأميرة أولجا التي تولت الحكم بعد وفاة زوجها إيجور ، وامتاز حكم الأميرة بالعدل والمساواة ، ولما انجذبت للتعاليم المسيحية ذهبت بنفسها إلى القسطنطينية وتعمدت بيد البطريرك ، وعند عودتها إلى بلادها واجهت مقاومة من أمراء المملكة ... وتولى الأمير فيلاديمير - حفيد الأميرة أولجا - الحكم سنة ٩٨٠م / ٣٧٠هـ في كييف وقرر أن يعتمد حسب الطقس البيزنطي ، وتمت معمودية الأمير فيلاديمير وشعب كييف سنة ٩٨٨م / ٣٧٨هـ وهو التاريخ الرسمي لتعميد روسيا ، واستمر حكم الأمير فيلاديمير حتى سنة ١٠١٥م / ٤٠٦هـ حيث امتد الإيمان المسيحي من كييف إلى كل موسكو^(١).

فقد أكثر دانيال الراهب من ذكر مثل هذه الرؤى الإعجازية وببالغ في وصفها ، لأنه كان من رجال الدين ، وكان بنو جلدته من الروس حديثي عهد بالمسيحية التي لم يمر على انتشارها وعلى تاريخ رحلته للأراضي المقدسة أكثر من قرن من الزمان، فكان لزاماً عليه - كرجل دين - أن يكثر من هذه الرؤى وببالغ في حقيقتها ، كي يعمل على تثبيت عقيدتهم ، وزيادة الإيمان المسيحي في صدورهم .

وعلى الرغم من أن الرحالة ثيودريش قد تحدث عن النار المقدسة وأكد على حقيقة وقوعها ، كما ذكر آنفاً - إلا أنه ذكر رواية أخرى تنسف روايته

(١) أنثاسيوس : الكنائس الشرقية وأوطانها . ط - دار نوبل - القاهرة - الطبعة الأولى سنة

٢٠٠٥م ج٤ ص ٢١٠ .

السابقة من الأساس يقول في هذه الرواية ^(١) : " وتظهر النار عادة في ساعة معينة وأماكن معينة ، إذ أنها تظهر أحياناً في الساعة الأولى ، وأحياناً في الساعة الثالثة ، أو السادسة أو التاسعة ، أو حتى ساعة متأخرة في نهاية اليوم ، وعلاوة على ذلك ، فإنها تأتي أحياناً في الضريح نفسه ، وأحياناً في معبد السيد - قبة الصخرة - وأحياناً في كنيسة يوحنا " .

وإذا كانت رؤيا النار المقدسة تتم في الضريح المقدس ، ويقام لها الاحتفالات الكبرى ، باعتبارها معجزة إلهية فإنه يمكن القول بأن هذه النار المقدسة ، كانت مجرد لعبة من ألعاب رجال الكنيسة اللاتين ، وهذا ما يستفاد من رواية ثيودريش السالفة الذكر ، والتي تفيد بأن النار المقدسة لم تكن مختصة بالضريح المقدس فقط ، بل كانت تتم في إحدى أماكن ثلاث ، كأن رجال الكنيسة إذا أعجزهم فعل هذه اللعبة المقدسة في الضريح المقدس فعلوها في المكانين الآخرين ، وكانت الجماهير الصليبية السانجة تصدق كل ما يقال لها كعادتها .

كان بلدوين الأول يأمل في إعادة المسيحيين المحليين مرة أخرى إلى كنائسهم وأديرتهم في أورشليم . وجاءته فرصته غير المتوقعة عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ في الليلة السابقة لعيد القيامة ترقبت الحشود ، كما كان معهوداً ، معجزة النار المقدسة ، غير أن شيئاً لم يحدث ولم تظهر النار الإلهية ! ومن المفترض أن اليونانيين كانوا قد اصطحبوا معهم سر تلك النار ، إذ لم يكونوا على استعداد للإفشاء به لللاتينيين ، وبدا عدم ظهور النار للحشود أمراً سيئاً وبدأ التساؤل عما إذا كان الفرنجة قد أغضبوا الله بشكل ما ، وفي النهاية اقترح

(١) وصف الأماكن المقدسة في فلسطين : ص ٦٨ - ٦٩ .

ديمبرت — بطريرك بيت المقدس — أن يتبعه اللاتينيون إلى " معبد الرب حيث كان الإله قد استجاب لدعوات سليمان . كما دعى المسيحيون المحليون للصلاة هناك . وفي الصباح ، تم الإعلان عن ظهور النار في المصباحين المجاورين للمقبرة . وبدأت رسالة السماء واضحة .^(١)

أي أن سر النار المقدسة ، كان من احتراف رجال الدين اليونانيين — البيزنطيين — ولعل أكبر دليل على احترافهم مثل هذه الألعاب التي يتلاعبون بها بعقول البسطاء والسذج من بني جلدتهم ما ذكره أحد مؤرخي النصارى أنفسهم وهو المكين بن العميد الذي يقول عن لعبة مماثلة للعبة النار المقدسة هذه^(٢) : " أمر ملك الروم توفيل بن ميخائيل^(*) بأن يمحوا الصور من الكنائس ، وأن لا يبقى في كنيسة صورة البتة ، وسببه أنه بلغه أن في بعض الكنائس التي على اسم مريم يظهر في صورتها في يوم عيدها لبن يتدفق من ثديها ، فكشف عن القضية

(١) كارين أرمسترانج : القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث . ترجمة د / فاطمة نصر — ط — الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٩ م . ص ٤٦٠ .

(٢) المكين بن العميد : تاريخ المسلمين من صاحب الشريعة أبي القاسم محمد — صلى الله عليه وسلم — إلى الدولة الآتابكية . المعروف بالمجموع المبارك — ط — لندن — هولندا سنة ١٦٤٥ م . ص ١٥٢ .

(*) توفيل بن ميخائيل : ويعرف أيضا باسم ثيوفيلوس بن ميخائيل الثاني (٨٢٩ — ٨٤٢ م / ٢١٤ — ٢٢٨ هـ) كان ثيوفيلوس آخر الأباطرة اللاأيقونيين — أي الرافضين لعبادة الصور في المسيحية — وآخر من جب الإضطهاد الواقع على المتمسكين بتوقيرها ، وكانت وفاته في يناير ٨٤٢ م / ٢٢٨ هـ وبموته ماتت اللاأيقونية كسياسة رسمية للدولة . أدونالد نيكول : معجم التراجم البيزنطية . ترجمة د / حسن حبشي . ط — الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٣ م . ص ١٠١ — ١٠٢ .

فوجد القاتم - أي رجل الدين القاتم على الكنيسة - قد تصنع في هذا ؛ لأنه كان يكسب من ذلك مالاً جزيلاً من الحجاج إلى الكنيسة ، سيما من النسوان ، فضرب عنق القاتم وأبطل الصور " ولو تم التحقيق الدقيق في أمر النار المقدسة التي كانت تنزل على الضريح المقدس ، من قبل أحد الصليبيين الباحثين عن الحقيقة - كما فعل ملك الروم - ثبت لهم أنها من الأعيب رجال الكنيسة .

ومما يؤسف له أن مثل هذه الألعاب الزائفة مازالت تتم حتى الآن من خلال استخدام التكنولوجيا والتقنيات الحديثة في عمل ما يعرف بقصص التجلي للسيدة مريم العذراء في الكثير من الكنائس ، فما أشبه اليوم بالبارحة .

الرؤى والأحلام في بداية الاستيطان الصليبي في الشرق

أسست الحملة الصليبية الأولى وجوداً مسيحياً لاتينياً على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط استمر نحو مائتي سنة ، وكانت الحملة تتكون من فيالق جاءت من مناطق كثيرة في أوروبا ، وعلى الرغم من أصول الصليبيين المختلفة فإن الصليبيين الذين استوطنوا في شرق البحر المتوسط ، كانوا يعرفون باسم "الفرنج" لدى معاصريهم من المسلمين واللاتين في الشرق^(١) . وقد شاعت الظروف أن تكون مدينة طرابلس آخر مدينة كبرى بالشام تسقط في أيدي الصليبيين ، وآخر إمارة كبرى يؤسسها الصليبيون بعد الزها وأنطاكية وبيت المقدس ، ولكنها في الوقت نفسه كانت آخر إمارة صليبية في بلاد الشام يستردها المسلمون عندما دالت دولة الصليبيين في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري .^(٢)

ومع هذا النجاح الذي حققه الصليبيون في الشرق الإسلامي ، كان من الطبيعي أن تنتهي أو تخف حدة الرؤى والأحلام المقدسة بين الصليبيين إذ لا مبرر لها طالما أن الرياح مواتية لهم ، فأينما حلت الأزمات ، هبطت الرؤى والأحلام ، لذا لا نكاد نعثر على أي رؤيا أو حلم من هذه الأحلام في المصادر الأوروبية خلال هذه الفترة إلا ما ندر .

لكن مع بداية حركة الجهاد الإسلامي ، ضد الوجود الصليبي في بلاد

(١) جوناثان سميث : تاريخ أوكسفورد . ص ١٦٧ .

(٢) د / سعيد عاشور : الحركة الصليبية . ج ١ ص ٣٦٧ .

الشام أخذت بعض الضربات تتوالى على الصليبيين ، ومن ثم بدأت الرؤى والأحلام المقدسة تطل برأسها من جديد . ففي سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م أقطع السلطان محمود السلجوقي مدينة ميافارقين للأمير إيلغازي الذي سار لحرب الإفرنج بعد ذلك ودخل حلب ، حيث انضم إليه ابن أخيه نور الدولة بك بن بهرام بن أرتق ، الذي سار بعد ذلك إلى بلاده وفي طريقه علم بك أن جوسلين دي كورتناي أمير الرها ، يتربص به للاتقاض عليه على غرة ، فما كان منه إلا أن أعد كميناً لعدوه ، وقع فيه هذا بسهولة ، فأخذته سهام المسلمين ، فوقع أسيراً واقتيد هو وبعض رجاله أسرى إلى قلعة خرتبرت في جبال كردستان ، حيث ألقوا في غياهب السجن^(١).

غير أن بعض سكان القلعة من الأرمن ، اتصلوا بجوسلين سراً ، بناء على طلبه ، فسلمهم رسالة إلى أصحابه في الرها ، أوصلوها لهم ، فانتدب هؤلاء خمسين شخصاً من الأرمن الأشداء ، الذين تنكروا بزي الفقراء ، ورجال الدين ، واستطاعوا بالحيلة ، الدخول إلى القلعة وقتل الحراس وبالتالي الوصول إلى السجن وتخليص جوسلين منه .^(٢)

غير أن فوشيه الشارترى كان له رأي آخر في فرار جوسلين من السجن في قلعة خرتبرت ، مبني على الرؤى والأحلام المقدسة كالعادة ، يقول الشارترى عن ذلك ^(٣): " لا أظن أن على أن ألتمز الصمت حيال مصيبة تراءت لتلك في

(١) سعيد برجوي : الحروب الصليبية . ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٤١ .

(٣) تاريخ الحملة إلى القدس : ص ٢٠١ .

طيف خيال ، فقد رأى " وقد روى ذلك بنفسه فيما بعد " مقتلته يقتلعهما جوسلين ، فأخبر حكماءه على الفور ، عله يعلم منهم تفسير هذا الحلم ، فقالوا : حقاً ، سوف يحل بك ذلك ، أو ما لا يقل عنه سوءاً ، إذا ما وقعت بين يديه ، وحال سماع ذلك أرسل بك رجالاً على الفور لقتل جوسلين لنلا يقتل هو على يديه ، كما ورد في النبوة ، ولكن قبل أن يصل القتلة إلى جوسلين كان قد نجا ، بحمد الله من الأسر .

ويتمادى فوشيه الشارترى في روايته ويذكر بأن هذا الحلم قد تحقق بالفعل، يقول عن ذلك^(١) : " أراد جوسلين أن يتيقن من وفاة بك أو من نجاته ، وبعد أن تفقد الباحثون من رجاله جنث الموتى ، تحققوا من جثة بك لشارات على درعه مألوفة لمن يعرفه ، قطع رجل رأس بك وحملها إلى جوسلين مهناً ... انظر كيف بأن تفسير الحلم الذي ذكرناه من قبل ، الحلم الذي رواه بك ، وكأنه يتنبأ بحتفه عندما نجا جوسلين من الأسر بأعجوبة^(٢) . والحق إن جوسلين حطم بك تحطيماً شاملاً إذ جروه من الرأس والأعضاء " .

وبالاطلاع على المصادر التاريخية الأخرى، لم نعثر على أي ذكر لحلم بك هذا ، لا من قريب أو بعيد ، والذي ادعى فوشيه الشارترى بأن بك قد رواه بعد

(١) تاريخ الحملة إلى القدس : ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) تذكر المصادر التاريخية الأوروبية الأخرى بأن هروب جوسلين من السجن لم يكن أعجوبة أو أي شيء من هذا القبيل ، بل بسبب الهجوم المفاجئ ، يقول وليم الصوري عن هذا الهروب : قام الرهائن بقتل حراسهم الموكلين بهم في إحدى القلاع ، إذ وثبوا عليهم وهم يغطون في سباتهم ... ولما تم لهم ذلك تسللوا خلسة تحت جناح الظلام وسلكوا دروباً ملتوية واتخذوا طريقهم إلى بلادهم " الحروب الصليبية . ج ٢ ص ٢٧٤ .

ذلك بنفسه ، فكان من الأجدي أن نجد له ذكراً في المصادر العربية على الأقل ، هذا فضلاً عن أن بلك نفسه لم يقتل من الأساس على أيدي الصليبيين ، ناهيك عن جوسلين نفسه .

فقد قتل بلك أثناء حصاره لقلعة مدينة منبج^(٢)، حيث أصيب بسهم قاتل ، لم يعرف راميهِ ، فاضطرب عسكره عندئذ ، وتفرق ، وخلص حسان البعلبكي - حاكم المدينة الموالي للصليبيين - واستعاد المدينة في ٢٧ ربيع ٥١٨هـ / ١٢٤٤م وكان من جملة القادة في جيش بلك ، ابن عمه تمرناش بن إيلغازي ، فحملهُ مقتولاً إلى حلب وتسلم المدينة^(١) . ويتضح من خلال هذا أن حلم بلك السالف الذكر ، كان من بنات أفكار فوشيه الشارترى ، وليس له أي أساس من الصحة ، مثله مثل غيره من الرؤى والأحلام التي أثقلت كتابه.

وبعد سقوط إمارة الرها الصليبية في يد عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م ، كان لابد من خروج حملة صليبية جديدة من أوروبا لإنقاذ موقف الصليبيين في الشرق ، فكان من الطبيعي أن تظهر الرؤى والأحلام من جديد لتساهم بدورها في الدعوة لما عرف بالحملة الصليبية الثانية . غير أن هذه الرؤى لم تكن بالقدر والكمية التي شهدتها الحملة الصليبية الأولى وذلك يرجع إلى اختلاف الظروف التي أحاطت بكلتا الحملتين .

وتأتي في مقدمة هذه الرؤى ، الرؤيا التي ذكرها المؤرخ أوتو أسقف

(٢) منبج : بلد قديم بينها وبين حلب يومان وإلي ملطية أربعة أيام - في الجمهورية السورية

حاليا - انحموي : معجم البلدان . ج ٥ ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .

(١) برجواي : الحروب الصليبية . ص ٢٤٣ .

فريزنغ والتي قصد من خلالها عودة ثقة الشعوب الأوروبية في البابوية وفي مكتبة البابا ، على اعتبار أنه الراعي الرسمي للحركة الصليبية ، يقول أوتو عن هذه الرؤيا^(١): " في سنة ١١٤٥ م / ٥٤٠ هـ وصل وفد ديني مرسل من الأسقفية الأرمن ومطراتهم ، جاء هذا الوفد إلى الحبر الأعظم - البابا - في فيتربو Viterbo وقد رأى أحدهم ما يلي : بينما كان الحبر الأعظم يقوم بالقدس المقدس أضاعت الشمس وانتشرت أشعتها فجأة حول رأسه بشكل كله بهاء ، وأثناء ذلك كان هناك حمامتان تصعدان وتهبط وسط نور الشمس ... ولعدم رؤيته وجود فتحة يمكن للضوء أن يتخذها طريقاً له ، أدرك أن هذا كله كان من عمل الرب ، وهنا ازداد يقيناً بطاعة الكنيسة الرومانية ، وجعل معروفاً ما رآه أيضاً إلى جميع الناس ، غير أن الأب المبجل رفض أن يعزى هذا إلى فضائله الخاصة ، وأعلن أنه بالحرى بسبب إيمان هذا الأسقف، أبيحت له هذه الرؤيا من السماء " .

غير أن أهم تلك الرؤى والأحلام في هذه الفترة من عمر الوجود الصليبي في بلاد الشرق الإسلامي الرؤيا التي تحدثت عن سبب اشتراك ملك فرنسا في الحملة الصليبية الثانية ، ففي حين لم يشترك أي ملك في الحملة الصليبية الأولى، فبته بعد نصف قرن عندما ناشد البابا يوجينيوس الثالث (١١٤٥ - ١١٥٣ م / ٥٤٠ - ٥٤٨ هـ) تقديم المساعدة لمملكة بيت المقدس التي كانت تتوسل بشدة، استجاب الملك لويس السابع ملك فرنسا بحماس لهذه الدعوة ، إذ جاء هاتف غيبي على لسان متنبئ وجرت دراسته بلهفة ، وكل ما كان واضحاً حول هذا الهاتف هو أنه وعد لويس بمدن القسطنطينية وبابل - العراق - وإمبراطورية

(١) للمدينتان : الموسوعة الشاملة . ج-٢٨ ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

في آسيا الصغرى ، وكان تأثير هذا الهاتف كبير جداً ، ولولا تلك التعاليم ، ربما لم تكن هناك حرب صليبية ، علاوة على ذلك كان الهاتف قد درس لا في فرنسا فقط ، بل في ألمانيا أيضاً .^(١)

ولعل أكبر دليل على عدم صدق هذه الرؤى والنبوءات وأن الدافع من وراء إذاعتها هو حث ملك فرنسا وغيره من سذج أوروبا على الانخراط في سلك الحملة الصليبية الثانية ، أنها وعدت ملك فرنسا بالاستيلاء على عدة مدن وبتكوين امبراطورية في آسيا الصغرى ، لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، فقد كانت الحملة الصليبية الثانية من أفشل الحملات الصليبية على الشرق ، وبدت هذه الحملة وكأنها نكبة أصابت الصليبيين في الشرق ، إذ أنها قضت على كل أمل لهم في الاعتماد على أوروبا ، لإمدادهم بالعون ، والمساعدة في المستقبل ، بعدما فقدوا الثقة بأولئك الغربيين ، الذين لا يعرفون كيف يتصرفون ، عند مجيئهم إلى الشرق.^(٢)

ولم يكف رجال الدين المسيحي من الغربيين عن استخدام سلاح الرؤى والأحلام في التحكم في عواطف العامة والخاصة من الأوروبيين في أحداث الحملة الصليبية الثانية . ففي سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م وصل الخبر بأن ملوك الأفرنج وصلوا إلى بيت المقدس ، وصلوا صلاة الموت ، وانحدروا إلى عكا ... فلما كان يوم السبت سادس ربيع الأول لم يشعروا بهم إلا وهم على باب دمشق ، وكان

^(١) د / سهيل زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية . الموسوعة الشاملة .

ج٤ ص ٩١ - ٩٢ .

^(٢) سعيد برجايوي : الحروب الصليبية . ص ٣٠١ .

معهم قسيس طويل بلحية بيضاء فركب حماراً أحمر ، وترك في حلقه صليباً وفي حلق حماره صليباً ، وأخذ في يده صليبين ، وقال للإفرنج : إني قد وعدني المسيح أن آخذ دمشق ولا يردني أحد . فاجتمعوا حوله وأقبل يطلب دمشق ، فلما رآه المسلمون غاروا للإسلام وحملوا عليه بأجمعهم فقتلوه وقتلوا الحمار ، وأخذوا الصليبان فأحرقوها .^(١)

وقد رفع الإفرنج حصارهم عن دمشق ، وبدأوا بالانسحاب عائدين إلى القدس ، وهم أكثر خلافاً من ذي قبل في ١١ ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م ، ولم يسلم جيشهم من سهام المسلمين الذين كانوا يتعقبونه في انسحابه ، بحيث قضوا على كل من استفردوه منه^(٢) . وهكذا أخلف الرب وعده ولم يمنح دمشق للصليبيين كما وعد هذا القس ، وفي هذا دليل كبير على أن هذه الرؤى والوعود كانت مجرد اختلاق .

(١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق / محمد عبد القادر عطا . ط - دار

الكتب العلمية - بيروت - لبنان - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م ج ١٨ ص ٦٣ - ٦٤ .

(٢) برجلوي : الحروب الصليبية . ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

دور الرؤى والأحلام في الدعوة للحملة الصليبية الثالثة

تعد الحملة الصليبية الثالثة ، من الناحية الروحية ، أقل شأنًا من الحملة الصليبية الأولى ، على الرغم من أنها تفوقها في المظاهر المادية ، على أنه ينبغي التسليم بأن الحركة الصليبية صبحتها سنة ١١٨٨م / ٥٨٤هـ فكرة إحياء الروح الدينية ، ذلك أن أوروبا — حسب الاعتقاد السائد حينئذ — أجمعت في حق الله ، فلو لم تجرم أوروبا لما سقط بيت المقدس .^(١)

يقول المؤرخ المجهول عن الرؤى التي سبقت سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين^(٢) : " كان يوم النكبة يقترب بتقديم شعبنا لقتال السلطان — يقصد به صلاح الدين الأيوبي — ورأى حاجب الملك — الصليبي جي لوزنيان — ذات ليلة في نومه حلمًا مزعجاً ، وهو أن نسرًا كان يُحلق فوق الجيش المسيحي قابضاً بمخالبه على سبعة سهام مريشة ونشابة ، ويصرخ صرخات مفزعة ويقول^(٣) : واتصأ لك يا أورشليم".

غير أنه تم استغلال الرؤى والأحلام المقدسة في شيء أكبر من ذلك ، وهو الدعوة إلى حملة صليبية جديدة على أثر سقوط القدس في يد صلاح الدين ، فيعتبر كونراد مونقترات مسئولاً أكثر من غيره عن الحرب الصليبية الثالثة ، فقد

(١) أرنست باركر : الحروب الصليبية . ترجمة د / السيد الباز العريني . ط — دار النهضة العربية — بيروت — لبنان — الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧م . ص ٨٧ .

(٢) مجهول : الحرب الصليبية الثالثة . ج ١ ص ٣٤ .

(٣) ذكر هذا الحلم أيضا المؤرخ روجر أوف ويندوفر : لكنه قال عن صيغة الصراخ : الويل لك ياقدس . الويل لك يا قدس ، ورود التاريخ . الموسوعة الشاملة . ج ٣٩ قسم ١ ص ٣١٧ .

وصل إلى مدينة صور ، بعد أن مضى على وقعة حطين ثلاثة أسابيع ، استطاع كونراد أن ينقذ مدينة صور ، ومنها أرسل مراراً إلى الغرب يلتمس النجدة ، ومن أقوى الوسائل التي استخدمها في طلب النجدة ، ما بعث به إلى الغرب من لوحة كبيرة جرى الطواف بها في أوروبا ، وهي تمثل القبر المقدس ، وقد لوثته خيول المسلمين^(١) .

وقد ذكر هذه الوسيلة أيضاً المؤرخ العربي المسلم ابن الأثير ، وإن كان قد عبر عن الصورة التي صور بها السيد المسيح بطريقة مختلفة ، فقال عن ذلك^(٢) : "إن الرهبان والقسوس وخلقاً كثيراً من مشهورهم وفرساتهم لبسوا السواد ، وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم ، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس^(٣) ، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعاً ، ويستجدون أهلها ويستجيرون بهم ، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس ، وصوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوه مع صورة عربي يضربه ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام ؛ وقالوا لهم : هذا المسيح يضربه محمد (ﷺ) نبي المسلمين ، وقد جرحه وقتله".

(١) أرنت باركر : الحروب الصليبية . ص ٨٦ .

(٢) الكامل في التاريخ : ج ١٢ ص ٣٢ - ٣٣ .

(٣) عندما تم فتح القدس على يد صلاح الدين ، لم يحفل هذا البطريك وهيئته الكنسية إلا بأنفسهم ، ودهش المسلمون حينما رأوا البطريك يؤدي عشرة دناتير مقدار الجزية المطلوبة منه ، ويغادر المدينة ، وقد اتحنت قامته لنقل ما يحمله من الذهب ، وقد تبعته العربات تحمل ما بحوزته من الطنافس والأواني المصنوعة من المعادن النفيسة . رنسيان تاريخ الحروب الصليبية . ج ٣ ص ٧٥٢ - ٧٥٣ .

لكن المتطلع لرواية ابن الأثير هذه ، ليعرف من الوهلة الأولى مدى السذاجة والتعصب الأعمى الذي كان يلقي بظلاله على عقلية العامة والخاصة في أوروبا في ذلك الوقت . فإن هذه الصورة لا يمكن أن يصدقها عقل ، إذ أن هناك أكثر من ستمائة عام ما بين وفاة السيد المسيح عليه السلام، وبعثة محمد (ﷺ) أي أنهما لم يلتقيا مطلقاً تاريخياً ، فكيف يضرب محمد المسيح ؟ فلاشك أن مثل هذه الصور قد وجدت بيئة فاسدة عقلياً قد ساعدتها على الإنتشار ، وهو ما حدث بالفعل ، على أية حال ما كادت تلك الأنباء تصل إلى روما حتى بادرت البابوية بإرسال المنشورات إلى سائر أنحاء أوروبا^(١) .

فقد كانت كتابة التقارير وإرسالها إلى أوروبا وقتئذ سائدة كعمل إعلامي لحث الناس وتشجيعهم على المشاركة في الحروب الصليبية ، لأن المهمة الكبرى للقساوسة ورجال الدين في تلك الفترة كانت تتمثل في ترغيب أكبر عدد ممكن من الناس للتوجه والمشاركة في الحروب الصليبية من منطلق ديني^(٢) .

وقد أكد على هذا الأمر بعض المؤرخين الأوروبيين مثل فوشيه الشارترى الذي يقول عن الدافع من وراء تدوينه لكتابه^(٣) : " مع أنني لا أجروء على مقارنة أعمال الفرنجة السابقة الذكر ، بإتجازات الإسرائيليين أو

(١) أرنست باركر : الحروب الصليبية . ص ٨٦ .

(٢) تيودريش : وصف الأماكن المقدسة في فلسطين ص ١٥ - ١٦ مقدمة الترجمة العربية .

(٣) تاريخ الحملة إلى القدس : ص ٢٦ .

المكابيين^(*) العظيمة ، أو كثير من شعوب الله المختارة ، التي حباها بالمعجزات المتعددة الخارقة إلا أنني لا أعتقد أن تجازات الفرنجة تقل عنها شأنًا ، فالمعجزات الإلهية تحققت مراراً بينهم ، وقد سعت جاهداً لإحياء ذكراها بالكتابة " فقد كان الرهبان هم الطبقة المتعلمة الوحيدة في أوروبا في العصور الوسطى ، ومن ثم صاروا بالطبع هم مؤرخوها الوحيدون ، وإذ كنا ندين لجهودهم وإخلاصهم ، فإن خرافاتهم الدينية وتطرفهم الديني ، فضلاً عن تعصبهم العنيف لمكاسبهم ونفوذهم الديني ، كل ذلك كان سبباً في تحريف عملهم التاريخي وتشويهه .^(١)

وهناك مثال آخر للهوس الديني حدث في جنوب وسط فرنسا عام ١١٨٢م/٥٧٨هـ ، حيث رأى نجار مغمور يدعي دوراند ليبوي Durand of le puy رؤيا أمرته فيها السيدة العذراء أن يدعو الناس إلى السلام وأعطته قطعة صغيرة من جلد الرق عليها صورة العذراء تحمل الطفل يسوع بين يديها ، وعلى جلد الرق أيضاً الدعاء التالي : " أيها المسيح الذي حملت ذنوب العالم . هب لنا السلام " وسرعان ما تجمعت حول دوراند حركة كبيرة كرسست نفسها للقضاء على اللصوص وقطاع الطرق في الأقاليم وتمتعت الرابطة الجديدة بتأييد كل طبقات المجتمع ، ثم انقلبت ضد المؤسسات الحكومية ، ففقدت تأييد النبلاء والكنيسة

(*) المكابيون Maccabee : اسم جنس أطلقه التقليد المسيحي على جميع إخوة يهوذا المكابي ولاسيما على الذين خلفوه على رأس ثورة اليهود ، وهناك ما يعرف بسفري المكابيين في الكتاب المقدس . اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي ص ٤٧٧ .

(١) هاري بارنز : تاريخ الكتابة التاريخية . ج ١ ص ٨٥ .

وصارت حركة منبوذة وطوردت حتى تم القضاء عليها .^(١) وفي نوفمبر سنة ١١٨٩م / ٥٨٥هـ . قدم من فرنسا إلى إنجلترا (روثود) كونت بيرش ، فأشار إلى أن الملك فيليب - ملك فرنسا - أتم استعداداته للحرب الصليبية ، وأنه يود أن يجتمع بالملك ريتشارد ليتناقشا في أمر اشتراكهما معاً في الرحيل ، وحدث في نهاية سنة ١١٨٨م / ٥٨٤هـ . أن وصل إلى البلاط الفرنسي من عملائه - أي الكونت روثود - بالقسطنطينية رسالة تشير إلى نبوءة أذاعها دانيال الزاهد المقدس ، بأن الفرنج سوف يستعيدون الأرض المقدسة في السنة التي يحل فيها عيد البشارة^(٢) في يوم أحد القيامة ، وسوف يحدث اقتران العيدين في سنة ١١٩٠م / ٥٨٦هـ ، وأضافت الرسالة أن صلاح الدين يواجه متاعب بسبب ما شجر من منازعات بينه وبين أفراد أسرته وحلفائه .^(٣)

وقد أسهمت هذه النبوءات وغيرها من الأحلام السالفة الذكر - على الرغم من زيفها - في زيادة الحماسة الدينية عند سكان الغرب الأوروبي فهبوا للاتخراط في سلك الحملة الصليبية الثالثة ، وقد صور أثر هذه السخافات في

(١) د / عبد الغني عبد العاطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . مجلد ٢ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) عيد البشارة Annunciation : المقصود به بشارة جبريل عليه السلام لمريم عليها السلام بأنها حامل في المسيح عليه السلام ، ويحتفل به المسيحيون يوم ٢٥ مارس من كل عام ، ويسمى أيضاً يوم العذراء Lady day د / إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم . ج١ ص ٩٢ .

(٣) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . ج٣ قسم ١ ص ٢٨ .

الدعوة للحملة الصليبية الثالثة المؤرخ العربي ابن الأثير الذي يقول عن ذلك^(١) :
" عظم ذلك على الفرنج ، فحشروا وحشدوا حتى النساء ... ومن لم يستطع
الخروج استأجر من يخرج عوضه فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق
إليه الإحصاء ، وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساتي ما هذا حده ،
فخرجوا على الصعب والذلول براً وبحراً ، من كل فج عميق " .

(١) الكامل في التاريخ : جـ ١٢ ص ٣٢ - ٣٣ .

أثر الرؤى والأحلام في صليبية ريتشارد قلب الأسد

عندما تم تتويج الملك ريتشارد الأول Richard ملكاً على إنجلترا في عام ١١٨٩م / ٥٨٤هـ . كانت أسطورة الملك آرثر Arthur وبلاطه الملكي من الأشياء الشائع الحديث عنها بين نبلاء دائرة حكم الملك ريتشارد ، فقد أراد الملك هنري الثاني Henry II — الذي سبق ريتشارد في الحكم — وريتشارد أن يجعلها حكمهما مستقبلاً بالسمو والجلال الذي كان عليه حكم آرثر .^(١)

وكان الملك آرثر هذا قد قاد القوات البريطانية في سلسلة المعارك التي انتهت بها إلى نصر حاسم في جبل بادون Badon — في مكان ما جنوبي إنجلترا — حوالي سنة ٥٠٠م ، وعلى الرغم من أن النصر النهائي ، كان لقبائل السكسون ، إلا أن شهرة آرثر عاشت لمدة طويلة في ذاكرة البريطانيين المهزومين هم وأحفادهم^(٢). وقد نسجت عن الملك آرثر الكثير من الأساطير وكان يلقب بالغربي المتهور The wild west^(٣) . فانتشر خلال العصور الوسطى اعتقاد قوي ، بأن آرثر لم يموت ، وأنه سيعود إلى الناس مرة أخرى ليقاتل الأعداء .^(٤)

(١) Cynthia Resor : Richard I takes the cross : the twelfth century culture of crusade, college of arts and sciences . university of Kentucky. U. S. A. 2002. P. 199 - 200 .

(٢) New catholic encyclopedia. Vol, 1. P. 759. Arthurian .

(٣) Cynthia Resor : Richard I takes the cross. PP. 199 - 200 .

(٤) د / إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم . ج١ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

قلم ريتشارد بدمج شخصيته بالمفاهيم البريطانية الخاصة بالرجوع المسيحي للملك آرثر ، وتوقعات ظهور إمبراطور نهاية العالم ، من أجل أن يدعم الحركة الصليبية ، إن التوقعات الخاصة بظهور إمبراطور نهاية العالم ودخوله أورشليم في نهاية الزمن ، كان بداية ظهورها بين البيزنطيين في بداية القرن الرابع الميلادي ، وهذه التنبؤات تم تنقيحها وتبنيها في القرن الثاني عشر الميلادي ، كي تنطبق على ملوك الغرب والصليبيين . بالإضافة إلى ذلك ففي القرن الثاني عشر الميلادي ارتبطت التوقعات المسيحية بالملك آرثر ليكون هو إمبراطور نهاية العالم . فذكروا بأن الملك آرثر لم يمت في حربة الأخيرة مع ولكنه انسحب إلى جزيرة أفالون Avalon ليضمد جراحه ، ولاحظ كتاب هذا العصر بوجود أمل بين الناس في عودة هذا الملك البطل ... ولكن ريتشارد سعى إلى أن يقدم نفسه على أنه هذا الملك البطل (آرثر) لكي يجعل دوره شرعياً لملك قوي جداً ومحارب لا يقاوم . ومع وجود إدعاء بوجود نبوءة تعد الناس بظهور ملك في نهاية العالم والمتمثل في آرثر ، وضع ريتشارد نفسه في التاريخ باعتبار أن الرب قد عينه ليكون بطل هذه المهمة ، ونتيجة لذلك قام ريتشارد بتوفير الدعم الذي يحقق النصر النهائي لحملة الصليبية.⁽¹⁾

ولم يتشبه ريتشارد بالملك آرثر في طريقة الاحتفال وتنظيم البلاط الملكي فقط ، بل كان يمتلك أثراً مهم للملك آرثر ، وهو سيف آرثر المشهور ، وعلى الرغم من أنه غير معروف كيف تملك هذا السيف ، إلا أنه حمل معه هذا السيف

(1) Cynthia Resor: Richard I takes the cross. PP. 218 - 220 .

عندما ترك إنجلترا ، وذهب في حملته الصليبية نحو الشرق .^(١)

وفي شتاء عام ١١٩٠ م / ٥٨٦ هـ في مشنا Messina في طريق ريتشارد للأرض المقدسة قابل يواقيم^(*) Joachim وهو متنبأ مشهور - لديه روح نبوءه ويخبر الناس بما سيحدث في المستقبل - وادعى ريتشارد بأنه قد تلقى وعداً بنصره في المستقبل ، لذلك اهتم بالدعم الإضافي الذي جاء له من يواقيم ، ولكن تفسير يواقيم للرؤيا كان مختلفاً عما كان يتوقعه ريتشارد وحاشيته .^(٢)

قام يواقيم بشرح صفحة لريتشارد من كتاب سفر الرؤيا تتحدث عن السبعة ملوك الذين سيظهرون ، حيث قال إن خمسة من هؤلاء الملوك سيسقطون والسادس سوف يخسر الأرض المقدسة سريعاً ، وسيأتي بعد ذلك ملك سابع ، وتحدث يواقيم أيضاً عن المذبحة^(*) التي ستحدث في الأرض المقدسة ، وهذا

(١) Cynthia Resor: Richard I takes the cross. P. 204 .

(*) هو الراهب المسيحي يواقيم أوف فيوري Joachim of fiore الذي اشتهر بنبوءاته عن نهاية العالم ، كارول هيلمينبرايد : صلاح الدين تطور أسطورة غريبة . ندوة اللجنة المصرية للتضامن بالقاهرة يونيو ١٩٨٧ م . ط - دار الشروق - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩ م . ص ١٠٥ .

(٢) Cynthia Resor : Richard I takes the cross . P. 244 - 245 .

(*) في ٢٧ رجب ٥٨٧ هـ / ٢٠ أغسطس ١١٩١ م نفذ الملك ريتشارد قلب الأسد مذبحة كبرى في الأسرى المسلمين قتل فيها زهاء ثلاثة آلاف أسير مسلم ، وقد لقيت زوجات الأسرى وأطفالهم مصرعهم إلى جوارهم ، ولما انتهت المذبحة غادر الإنجليز البقعة بما تناثر عليها من الجثث المشوهة والمتعفنة . رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية . ج٤ ص ١٠٦ . ربما يكون السبب الحقيقي وراء تنفيذ هذه المذبحة هو رغبة ريتشارد في تحقيق نبوءة يواقيم بحدوث مذبحة في الأرض المقدسة ، تمهيداً لانتصاره على صلاح الدين وليس لخلافه معه حول تنفيذ معاهدة تسليم عكا ، كما هو شائع في المصادر التاريخية العربية .

العنف الذي سيحدث سيؤدي إلى أن اتباع صلاح الدين يتركون المدن في الأرض المقدسة مما يمهد إلى رجوع المسيحيين ثم تحول يواقيم إلى ريتشارد قائلاً له : إن الرب حفظ هذه العلامة وستحدث من خلاك وسوف يعطيك الرب النصر على الأعداء ويمجد الرب اسمك إلى الأبد ، وأنت ستمجد الرب ، ومن خلاك سيعظم الرب إذا واصلت في ذهابك " . (١)

فقد شرح له القديس يواقيم معنى الرؤيا (رؤيا القديس يوحنا) إذ أشار إلى أن الرؤس السبعة للوحش ليست سوى هيرودس ، ونيرون ، وقلسطنطىوس ومحمد (ﷺ) وميلسموت (الذي يقصد به فيما يبدو عبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين) ، وصلاح الدين ، ثم أخيراً المسيح الدجال (٢) الذي صرح يواقيم أنه جرت فعلاً ولادته في روما منذ خمس عشرة سنة . (٢)

وذكر يواقيم في رواية أخرى بأن صلاح الدين سوف يخسر أورشليم وحينما سأله ريتشارد عن تاريخ حدوث ذلك ، أجابه يواقيم " عندما تمر سبعة أعوام من أول يوم احتل فيه صلاح الدين أورشليم " ثم سأله ريتشارد : لماذا لا نذهب في وقت مقارب من نهاية السبعة أعوام ؟ فرد عليه يواقيم : إن ذهابك شيء ضروري جداً ، لأن الرب سوف يمنحك النصر على كل أعداءه ، ويمجد

(١) Cynthia Resor: Richard I takes the cross. P. 245 .

(٢) المسيح الدجال Antichrist : ورد في العهد الجديد أنه سيظهر قبيل مجيء المسيح الثاني ويكون خصماً للمسيح ، وسبباً للارتداد عن الدين ، ويطلق هذا الاسم أيضاً على أصحاب البدع على مر تاريخ المسيحية . اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي . ص ٤٦٠ .

(٣) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ قسم ١ ص ٨٧ .

اسمك على كل أمراء الأرض " (١) . وعندما كان أسطول الملك ريتشارد في طريقه إلى الأرض المقدسة لم تكف المصادر الأوروبية عن ذكر المزيد من هذه الرؤى والأحلام من ذلك قول المؤرخ روجر أوف ويندوفر (٢) : تعرض الأسطول عند السواحل الأسبانية لعاصفة فرقت السفن على الفور ، وفي أثناء هياج العاصفة وعندما كان الجميع خائفين يدعون إلى الرب ، ظهر توماس الشهيد المبارك رئيس أساقفة كنتربري في أوقات ثلاثة متنوعة إلى ثلاث أشخاص مختلفين وقال لهم : " لا تخافوا ، لأنني أنا ، وإدموند الشهيد المبارك ، والقديس نيقولا المعترف ، قد جرى تعييننا من قبل الرب من أجل حراسة أسطول ملك إنجلترا ، وإذا ما نأى البحارة وقادة الأسطول بأنفسهم عن الذنوب وتابوا من ذنوبهم الماضية ، سوف يمنحهم الرب رحلة موفقة ، وسيوجه سبلهم في ممراته " وسمعت هذه الكلمات ثلاث مرات متواليات وإثرها اختفى القديس توماس ، وتوقفت العاصفة وهدأت .

غير أن شيئاً من هذه الأحلام والنبوءات ، لم يحدث ، فلم يهزم صلاح الدين الأيوبي ، ولم يستولي ريتشارد على القدس ، بل ولم يصبح امبراطور آخر الزمان ، فقد تم التغرير به من قبل رجال الدين مثله مثل غيره من أبناء الغرب الأوروبي السذج ، للانخراط في المشروع الصليبي الاستعماري ، لكن دون فائدة .

ففي عام ١١٩٢م / ٥٨٨هـ ، غادر ملك الإنجليز مدينة يافا إلى عكا ، حيث أبحر من هذه المدينة إلى بلاده تاركاً وراءه ذكرى رجل الحرب الكبير ، كما

(١) Cynthia Resor : Richard I takes the cross . P. 245 - 246 .

(٢) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ . الموسوعة الشاملة . جـ ٣٩ قسم ١ ص ٣٦١ .

أبحر أغلب فرسان الصليبيين وجنودهم ، إذ لم يعد ثمة ما يفعلونه في الشرق بعد الهدنة التي عقدوها مع صلاح الدين الأيوبي ^(١) . لقد كان فشل الحملة الصليبية الثالثة ، والتي كان من المتوقع نجاحها مستقبلاً ، وذلك عندما رحل ريتشارد للأرض المقدسة ، وتصرفاته وأفعاله قبل وأثناء الحملة ، يقر بأن ريتشارد كان يأمل أن يلحق نفسه بالأسطورة القديمة " آرثر " من أجل أن يطغى على الرونق الخاص بفيلب أوغسطس ملك فرنسا ، فقد استغل ريتشارد الحملة الصليبية ليبني لنفسه هالة ، كملك قوى أمام شعبه ، وليحسن من صورته ومصداقيته أمام الكنيسة . ^(٢)

^(١) سعيد برجلاوي : الحروب الصليبية . ص ٤٣٨ .

^(٢) Cynthia Rosor : Richard I takes the cross. P 250 .

رؤى وأحلام استيلاء الصليبيين على القسطنطينية

كانت الرؤى والأحلام هي التى توجه الحوادث وترشدها فى الدولة البيزنطية - حتى قبل قدوم الصليبيين إلى الشرق - فإن الإمبراطور لاوون الخامس (٨١٣ - ٨٢٠م / ١٩٨ - ٢٠٥هـ) رأى فى منامه أن ميخائيل العمورى - أحد خصومه - سيقته ، وامتنع الإمبراطور يوحنا الثانى عن تتويج ابنه الأكبر بسبب أحد الأحلام ، على حين أن لاوون الخامس أيضاً علم بقرب منيته من كتاب للتنبؤات والصور الرمزية .^(١)

لكن مع قدوم الصليبيين إلى الشرق وانتشار الرؤى والأحلام المقدسة بينهم ، كان من الطبيعي أن تأخذ الإمبراطورية البيزنطية حظها من هذه الرؤى والأحلام . يقول يوحنا كيناموس عن مرض الإمبراطور جون^(٢) الذى مات فيه^(٣) : " بدأ الإمبراطور يرتجف فى قرارة نفسه لتوقعه الموت خاصة بسبب أنه لم ينفذ خطته التى ناضل من قبل فى سبيل تحقيقها ، وذلك فيما يتعلق بزيارة فلسطين ... وبما أنه وقتذاك فى حالة مستعصية على الشفاء ، استدعى رجلاً مقدساً ، وكان راهباً ، وسأله أن يطلب له الرحمة الربانية بالصلاة طوال الليل ، ولقد قيل إنه بينما كان الراهب مكرساً نفسه للصلاة ، سمع أصوات غناء ،

(١) رنسيان : الحضارة البيزنطية . ص ٢٦١ - ٢٦٢ . بتصريف بسيط .

(٢) حكم الإمبراطور جون الرومان لمدة ٢٥ سنة و٧ أشهر ، وتوفى فى أبريل سنة ١١٤٣م /

٥٧٦هـ . يوحنا كيناموس : أعمال يوحنا وماتويل كومينوس . الموسوعة الشاملة .

جـ ٢٨ ص ٤٦ .

(٣) المصدر السابق : جـ ٢٨ ص ٤٣ .

وانبعث ضوء رؤى من مكان مرتفع ، وكان هناك شاب ربّاني أوقف روحه المضطربة " .

ويقول المؤرخ السالف الذكر أيضاً عن الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول (١١٤٣ - ١١٨٠ م / ٥٣٨ - ٥٧٦ هـ) ^(١) : " كان هناك واحد من أمناء سر الإمبراطور اسمه ثيودور وكنيته ستبيوتس Stypeiotes وكان من المقربين بشكل خاص من الإمبراطور ، ولكن عندما برهن هذا التعيس أنه سيئ النوايا نحوه ومختل ، فقد لساته مع عينيه ، ذلك أنه تنبأ لعدد كبير من الناس وأخبرهم على شكل ما يفعله الأنبياء ، أن مدة حياة الإمبراطور قد شارفت على الانتهاء " ، ومن العجيب أن يوحنا كيناموس يتهم هذا الرجل بأنه مختل ، لأنه نبوءته لم تكن على هواه وهوى سيده الإمبراطور ، في حين يمدح صاحب الرؤيا السالفة الذكر ويصفه بالقداسة ، لأن رؤياه تتماشى مع ما يرنو إليه .

ومع قرب الهجوم الصليبي على عاصمة الدولة البيزنطية فيما عرف بالحملة الصليبية الرابعة ، بدأت الأحلام والرؤى المقدسة تطل برأسها من الغرب اللاتيني من جديد ، فقد استخدموا هذا السلاح الخطير ، ليس في حربهم مع المسلمين في الشرق فقط ، بل مع إخوانهم في المسيحية ، وهذا دليل كبير على نيتهم في كتلكة العالم .

ففي سنة ١١٩٨ م / ٥٩٥ هـ ظهر في فرنسا رجل نقي صالح - على حد تعبير المؤرخ - اسمه فولك دي ني ، الذي كان من قرية (ني) الصغيرة ، وكان

(١) يوحنا كيناموس : أعمال يوحنا كيناموس . الموسوعة الشاملة . جـ ٢٨ ص ١٨٣ .

واعظاً وقسيساً ، وقد ظهر على يد هذا الرجل الصالح كثير من الأمور الباهرة وذاعت شهرته حتى بلغت مسامع البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦ م / ٥٩٥ - ٦١٣ هـ) بابا روما ^(١) ، وقد عهد إليه البابا أنوسنت في نوفمبر ١١٩٨م بالدعوة للحرب الصليبية بين الشعوب الأوروبية ، وقد بدأ هذه الدعوة في النواحي المحيطة ببافيس أولاً ، وقد بالغ الناس في مآثره ونسبوا إليه معجزات كانت من وهم العامة ، وتديج أصحاب الأغراض ، وقد مات هذا الواعظ الداعية سنة ١٢٠٢م / ٥٩٩ هـ ^(٢) ، أي قبل اندلاع أحداث الحملة الصليبية الرابعة بفترة وجيزة ، وفولك دي نى هذا يذكرنا بدوره وبأحلامه بالدور الذى قام به بطرس الناسك والأسطورة التى حيك حولها فى أحداث الحملة الصليبية الأولى .

وهناك مجموعة من الأشعار تنسب إلى الإمبراطور البيزنطي لاوون السادس (٨٧٠ - ٨٨٦ م / ٢٥٧ - ٢٨٣ هـ) تمعن فى أستار الغيب والمستقبل ، وتنبأت بكارثة عام ١٢٠٤م / ٦٠١ هـ ^(٣) ، أى باستيلاء اللاتين على القسطنطينية .

لقد بدت الإمبراطورية البيزنطية فى عين الغرب اللاتيني ذات صفتين متباينتين : فهي دولة مسيحية قبالة أعداء غير مسيحيين ، وحق على اللاتين

(١) جيوفرى فلهااردون : فتح القسطنطينية . ترجمة د/ حسن حبشي . ط - المجلس العلمي

بجامعة الملك عبد العزيز - السعودية - للطبعة الأولى سنة ١٤٠٣ هـ . ص ٤٣ .

(٢) المصدر السابق : ص ٤٣ . حاشية رقم (٤) .

(٣) رنسيان : الحضارة البيزنطية . ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

مساعدتها ، وهي كذلك دولة ملوثة بالهرطقة ^(٥) ، متحدية روما أشد التحدي ، معادية لكل محاولة تبشيرية كاثوليكية في الجنوب الغربي من أوروبا ، ثم إنه على الرغم من اعتراف رجال الدين من الكاثوليكين والأرثوذكسيين بأن انفصال الكنيستين جاء وبالأعلى الطرفين ، فإن أحداً لم يظهر شيئاً من الميل للنزول عن قليل من رأيه المبتسر أو كرامته الجوفاء ، على أن اللاتين رأوا أن ثمة سبيلين لإقرار السلام ، أولهما الاتفاق ، وهو سبيل وعر ولكنه غير مستحيل ، وثانيهما سبيل الحرب والاستيلاء وهو ما ذهب إليه النورمانيون منذ البداية . ^(١)

فبعد أن قرر قادة الحملة الصليبية الرابعة أن يكون هدفهم مصر ، وبينما هم يستعدون للإبحار إليها ، إذا بثورة تشب في القسطنطينية انتهت بخلع الإمبراطور إسحق الثاني وفرار ابنه ألكسيوس إلى الغرب طالباً المساعدة من البابوية وجموع الصليبيين ، أما الثمن الذي عرضه ألكسيوس مقابل تلك المساعدة فكان مغرياً حقاً يتلخص في إخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية ، فضلاً عن مساعدة الصليبيين في حملتهم ضد مصر ، ومن الطبيعي أن يصادف هذا العرض قبولاً من البابوية . ^(٢)

هكذا سنحت الفرصة للصليبيين ، لنيل مآربهم من عاصمة البيزنطيين ، التي طالما عللوا النفس بالاستيلاء عليها ، منذ قامت أول حملة صليبية للشرق ،

^(٥) هرطقي Heterodox : ضد مستقيم الرأي ، وتدل هذه الكلمة على من لا يوافق على صيغة الإيمان . اليسوعي : معجم الإيمان المسيحي . ص ٥٢٥ .

^(١) هـ . فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى . ترجمة / محمد مصطفى زيادة . ط - دار المعارف - الطبعة السادسة سنة ١٩٧٦م . ج ١ ص ١٧٨ - ١٧٩ .

^(٢) د/ سعيد عاشور : الحركة الصليبية . ج ٢ ص ١٨٥ .

نظراً لما فيها من كنوز وغنائم ، وبسبب ما يفصل بينهم وبين البيزنطيين من خلاف فى العقيدتين ، وانفصال فى الكنيستين ، وجاء الوقت الذى رأوا أنفسهم فيه قادرين على ذلك ، فاستعدوا للضربة القاضية ، وكان الموعد المعين لافتحام القسطنطينية فى التاسع من أبريل سنة ١٢٠٤م / ٦٠١هـ ، حيث انقض الصليبيون والبنادقة فى آن واحد على المدينة من الجهة الشمالية الشرقية .^(١)

لم يفلت من تخريب الصليبيين الأديرة والكنائس والمكتبات ، بل حدث فى كنيسة آيا صوفية ذاتها ، أن جرت مشاهدة العساكر السكارى يعزقون الستائر الحربية ، ويحطمون الأواني الفضية الكبيرة ، وبينما كانوا يتناولون الشراب فى أواني المذبح مبتهجين ، تربعت عاهرة على كرسي البطريرك ، وأخذت تردد أغنية فرنسية بذينة ، وتعرضت الراهبات لاغتصاب فى أديرتهن .^(٢)

وأمام هذه الانتهاكات التى ارتكبتها الصليبيون فى القسطنطينية تجاه إخوانهم فى العقيدة ، كان لابد أن تطل الرؤى والأحلام المقدسة وكذلك النبوءات من قبل الصليبيين ، كي تبرر ما فعلوه من جرائم على أنه كان أمراً مقدراً سلفاً ، وأنهم كان ينفذون إرادة الرب .

يقول روبرت دى كلارى أحد مؤرخي هذه الحملة ، عن مثل هذه المبررات^(٣) : " فى ناحية أخرى من المدينة — يقصد القسطنطينية — منظر

(١) برجلوى : الحروب الصليبية . ص ٤٦٥ .

(٢) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . ج ٣ قسم ١ ص ٢٢٢ .

(٣) سقوط القسطنطينية : ترجمة د/ سهيل زكار . نشر ضمن الموسوعة الشاملة فى تاريخ

الحروب الصليبية — ط — دار الفكر — دمشق — سوريا — لم تنكر سنة الطبع . ج ١٠

ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

عجيب آخر ، فقد انتصب هناك تمثالان من البرونز لامرأتين تفنن صانعهما بهما حتى شابها الطبيعة ، وكان أحد هذين التمثالين يمد يده باتجاه الغرب ، وعليه نقشت عبارات فحواها : سيأتي قوم من الغرب فيستولون على القسطنطينية " .

ولم يتوقف روبرت دى كلارى عند هذا الحد ، بل ادعى بأن خطة الاستيلاء على القسطنطينية بكل تفاصيلها ، كانت محفورة على إحدى جدران صوامعها - نوع من الأديرة - منذ زمن بعيد .

يقول عن ذلك ^(١) : " وفى جانب آخر من المدينة منظر عجيب آخر ، فقد كان هناك صومعتان شاهقتان عريضتان ونقشت على جدران هاتين الصومعتين صور ورسوم كل الأحداث التى ألفت بالقسطنطينية ، ونبوءة كل ما كان مقدراً له أن يقع بها ، لكن لم يوجد أى إنسان كان بإمكانه فهم واحدة من النبوءات ، حتى إن استيلاء الفرنجة على المدينة كان مدوناً ومرسوماً على جدران هاتين الصومعتين ، وكذلك رسوم السفن التى استخدموها فى الانقضاض على المدينة ، والاستيلاء عليها ، لكن الإغريق لم يدركوا سر هذه الرسوم قبل وقوع الواقعة ، لكن بعدما وقعت قصدوا مكان الصومعتين وتأملوا ما عليها من رسوم وكتابة وصور سفن فإذا بها تقول : إن شعباً من ذوى الشعور القصيرة والسيوف الفولاذية سيتقدمون من الغرب لغزو القسطنطينية " .

وبعد أن وضع الصليبيون أيديهم بالفعل على القسطنطينية ، ألقى القبض

(١) سقوط القسطنطينية : الموسوعة الشاملة . جـ ١٠ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

على مرزوفيلوس^(٥) ، وجاء به إلى الإمبراطور بلدوين في القسطنطينية ، فسر بذلك سروراً زائداً ، وراح يستشير رجاله فيما ينبغي عليه عمله إزاء رجل أجرم في حق مولاه باغتياله إياه ، فكان في وسط القسطنطينية عمود رخام من أطول وأحسن الأعمدة التي رأتها العين ، فاتفق الرأي على أخذ مرزوفيلوس إلى قمته وإلقائه منه إلى الأرض على مشهد من الجميع ، ومن ثم فقد ساروا بالإمبراطور مرزوفيلوس إلى ذلك العمود وأصعدوه إلى قمته ، وتقاطر الناس أفواجا من كل حذب وصوب تسوقهم اللهفة إلى رؤية هذا الحدث ، ثم دفعوا به من عل حتى إذا بلغ الأرض كانت أوصاله قد تمزقت إرباً وتهشمت عظامه^(١) .

وقد فسرت عملية الخلاص من بطل المقاومة القسطنطينية ضد الصليبيين ، بهذه الطريقة البشعة ، على أنها نبوءة قديمة حتمية الوقوع ، وأن لا دخل للصليبيين فيها ، لأنها إرادة الرب ، يقول فلهاردون عن ذلك الأمر^(٢) : "والآن إليك عجيبة كبرى ، كان محفوراً على هذا العمود الذي أسقطوا مرزوفيلوس من فوقه صور مختلفة ، منها واحدة تمثل إمبراطوراً يسقط منكس الرأس ، إذ كانت هناك نبوءة قديمة بأنه سوف يرمي من قمة هذا العمود أحد أباطرة القسطنطينية ، وهكذا تحققت النبوءة لكن بالنسبة لكل ما كتبه جيوفري

^(٥) هو دوكاس مرزوفيلوس ويعرف باسم ألكسيوس الخامس ، الذي لم يكن بعيداً عن الأسرة المالكة بل كان يجري في عروقه الدم الإمبراطوري ، إذ كان جده الأعلى ألكسيوس كومنين وقد زحزح مرزوفيلوس ، ألكسيوس الرابع عن عرشه ، ثم جلس هو على العرش البيزنطي إمبراطوراً ، فلهاردون : فتح القسطنطينية . ص ١١٧ ، حاشية رقم (١٣٦) .

^(١) المصدر السابق : ص ١٤٦ - ١٤٧ .

^(٢) المصدر السابق : ص ١٤٧ - ١٤٨ .

فلهاردون عن غزو القسطنطينية ، يمكن اعتباره مجرد دعاية أراد أن يغطي من خلال كتابه على المؤامرة التي أدت إلى انحراف الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها لكي تحاصر عاصمة مسيحية وتستولي عليها .^(١)

فقد كانت الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤م / ٥٩٩ / ٦٠١ هـ) والتي انتهت بإخضاع ونهب مدينة القسطنطينية المسيحية واستباحتها لأعمال السلب والحرق بمثابة فضيحة وخزي مبين ألحق بالديانة المسيحية .^(٢)

(١) بيرييل سمالي : المؤرخون في العصور الوسطى . ص ١٤٩ .

(٢) يوشع براور : الاستيطان الصليبي في فلسطين . ص ١٣ .

الرؤى المقدسة وصليبية الأطفال

عندما كان يعود المقاتل الصليبي إلى وطنه ، كان يقص على أهل بيته وأهل قريته البطولات التي حققها الفرسان الصليبيين ، الغنائم والأسلاب التي استولوا عليها ، ويثير خيال سامعيه بالكثير من قصص المغامرات وعن الأرض المقدسة ، والمعجزات الإلهية التي تحققت ... ولاشك أن الأطفال والمراهقين كانوا أكثر الفئات تأثراً بهذه الروايات التي ألهمت حماسهم وحركت خيالهم ، وهم بطبيعتهم أقرب إلى عملية الاستهواء ، فخيال الأطفال يجعلهم يعتقدون أنهم قادرون على أن يأتوا بمعجزات في شتى المجالات ، ربما يعجز آباؤهم الكبار عن أن يأتوا بها ، خاصة وأن الأطفال والمراهقين يميلون بشدة إلى تجسيد الخيال ، وتسيطر عليهم أحلام اليقظة .^(١)

بعد سقوط القدس على يد صلاح الدين الأيوبي أصبح تحرير القدس والأرض المقدسة في حاجة إلى معجزة ، والمعجزة لم تكن لتتم إلا مع حماسة الأتقياء من الأطفال الفقراء ؛ لأن الأطفال الذين وهبهم الله البراءة والطهارة ، والعامة الذين عاشوا في الفقر يستحقون العيش في وئام مع المسيح^(٢) ، وقد نشأت الفكرة وتغذت على أساس أن ما منعه العناية الإلهية عن الكبار الآثمين سوف تمنحه للأطفال رمز البراءة^(٣) ، ففي عام ١٢١٢م / ٦٠٩هـ ظل

(١) د/ عبد الغني عبد العاطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . مجلد ٢

ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) المرجع السابق : مجلد ٢ ص ١٥٩ .

(٣) يوشع براور : عالم الصليبيين . ص ٨٢ .

المبشرون يطوفون بالقرى ويحضون على الاشتراك في حملة صليبية لقتال المسلمين في الشرق أو في أسبانيا ، فكان من اليسير أن يتأثر صبي شديد العاطفة بفكرة أن بوسعه أيضاً أن يكون مبشراً وأن يبرز بطرس الناسك ، الذي بلغت بسالته وإقدامه في القرن الماضي من الجلال والعظمة ما أضحى من الأساطير . (١)

في صيف عام ١٢١٢م / ٦٠٩هـ كان هناك صبي راعي يدعى ستيفن Stephen من قرية كلوى Cloyes بالقرب من فيندوم Vendome – بفرنسا – ادعى بأن الرب ظهر له في شكل حاج فقير ، وأخذ منه رغيف خبز ، فأعطاه خطاباً ليحمله إلى ملك فرنسا ، فذهب الصبي إلى دير القديس دينيس St. Denis مع رفقاءه من الرعاة الصبيان من نفس عمره ، وهناك قام الرب بعمل معجزاته حول هذا الصبي ، وكانت المعجزات كثيرة لدرجة أنها أكدت إدعاءات هذا الصبي ، وآمن به الجميع . (٢)

وشرع في التبشير بدعوته عند مدخل دير القديس دينيس ذاته ، وأعلن أنه سوف يقود جماعة من الأطفال لإنقاذ العالم المسيحي ، وسوف تجف البحار أمامهم (٣) ، وقد تبعه حشد كبير من الأطفال واعترفوا بهذا الصبي المقدس Holy Boy سيداً عليهم ، وكانت هذه العصابة تتكون من الصبيان والفتيات مع

(١) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . ج٣ قسم ١ ص ٢٥٠ .

(٢) Dana .C. Munro : The Children's Crusade. The American Historical Review, vol.19 , No. 3 . Capr, 1914. P. 518 .

(٣) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . ج٣ قسم ١ ص ٢٥٠ .

بعض الشباب وكبار السن ، وجابوا المدن والقرى والقلاع فى مواكب كبيرة ، حاملين الأعلام والشموع والصليبان ، مؤرجحين فى المباخر ويغنون بشكل وطني " يا سيدنا أنصر المسيحية ، يا سيدنا ارجع لنا الصليب المقدس " ، وعندما كان يسألهم الناس وآبؤهم إلى أين تذهبون ؟ كانوا يرددون بروح واحدة : إلى الله To Gad .^(١)

بادر بعض رجال الدين وبعض العلمانيين المستنيرين بإيقاف هذا المشروع المحفوف بالمخاطر ، إلا أن الجمهور تصدى لهم ومنعهم بالقوة ، فقد رأت الجماهير ضرورة استكمال مسيرة الأطفال ووجه العامة اتهاماتهم إلى رجال الدين القائلين لهم إذا كنتم لا تعتقدون فى مشروع الأطفال وتريدون إعاقتهم عن استكمال مسيرتهم ، فإن ذلك لن يكون إلا بدافع الحسد والغيرة ، وقد نتج عن مساندة العامة لحركة الأطفال وقوع بعض الاضطرابات ... ومن المثير للدهشة أنه فى خلال شهر واحد انضم إلى دعوة ستيفن ثلاثين ألف طفل ، لم يتجاوز الواحد منهم الثانية عشرة من عمره ، كانوا خليطاً متنوعاً من الفلاحين السذج والرعاة ، وكان منهم أيضاً صبيان اتحدروا من أسرات شريفة ، كما انضم إلى المسيرة أيضاً بعض الفاسقين والعاهرات .^(٢)

وما من أحد من الأطفال أنكر على النبي الملهم — ستيفن — أن تتوفر له الراحة فى سفره ، بل حدث عكس ذلك ، إذ عاملوه على أنه قديس ، فعقائص

^(١) Munro : The Children's Crusade . P. 518 .

^(٢) د/ عبد الغنى عبد العاطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامى والتوسيط . مجلد ٢ ص ١٦٣ — ١٦٤ .

شعره ، وقطع من ثيابه ، كانت تعتبر من المقدسات الدينية القيمة التى ينبغى اقتناؤها ^(١) ، فعندما كان ستيفن فى طريقة إلى البحر المتوسط ، ركب عربة محاطة بالحراس ، على اعتبار أنه مقدساً ، وكان من حسن حظ أى إنسان ، أن يأخذ شعره من رأسه ، أو خيطاً من ملابسه . ^(٢)

فى طريقهم إلى ميناء مرسيليا مات عدد كبير من الأطفال على جانبى الطريق ، غير أن عدة آلاف من الأطفال قد تدفقوا فى النهاية على مدينة مرسيليا وبات الأطفال ليلتهم ، وفى صبيحة اليوم التالي احتشدوا على ساحل البحر ليشهدوه ، وقد انشق أمامهم ليعبروه إلى الأرض المقدسة ، وهى النبوءة التى تنبأ بها ستيفن الذى اعتقد أن الله سيزوده بمعجزة كالتى منحها لنبىه موسى عليه السلام ، واعتقد أنه سيخرج باتباعه لتخليص الأرض المقدسة سيراً على الأقدام ، مثلما خرج موسى ببني إسرائيل عبر البحر الأحمر ، ولما لم تحدث المعجزة استبد اليأس بالأطفال وتحول بعضهم لمهاجمته وعلا صياحهم بأنه قد خدعهم وأخذوا يعودون من حيث أتوا ، ومع ذلك فإن عدداً كبيراً من الأطفال ومعهم بعض الحجاج والقساوسة ظلوا ينتظرون على شاطئ البحر معتقدين أنه بعد مرور فترة مناسبة ستحدث المعجزة . ^(٣)

خلال هذه اللحظة العصبية فى حملة ستيفن ، كان هناك تاجران هما

(١) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . جـ ٣ قسم ١ ص ٢٥١ .

(٢) Munro : The Children's Crusade . P. 519 .

(٣) د/ عبد الغنى عبد العاطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط . مجلد ٢

هوجو فيريز Hugo Ferreus ووليم بوركس William Porcus عرضا على هؤلاء الأطفال أن يحملوهم عبر البحر بدون مقابل ، وقاموا بتعبئة سبعة سفن بالأطفال ، اثنان من هذه السفن تحطمت وغرقت ، والخمسة الأخرى ذهبت إلى الإسكندرية وشمال أفريقيا ، وهناك تم بيع هؤلاء الأطفال للمسلمين ^(١) ، وشق الأطفال طريقهم إلى بلاد الإسلام حقاً ، ولكن على متن سفن تجار الرقيق المسيحيين ، وتم بيعهم في أسواق النخاسة . ^(٢)

وهكذا أخلف الرب وعده كالعادة مع الصليبيين ، فلم يجف البحر أمامهم ، ولم يصل الأطفال إلى أورشليم لتحريرها ، بلخابوا خيبة أسوء من خيبة آباءهم وعليه تعد حملة الطفل ستيفن الصبيانية هذه ، من أكبر الأدلة على زيف الرؤى والأحلام المقدسة ، والتي حركت الحملة من البداية حتى النهاية ، والتي تم اختراعها كغيرها من الأحلام الصليبية لتحقيق مآرب خاصة ، كالدفع بأبناء الغرب الأوروبي السذج للانخراط في هذه الحروب الفاشلة .

لم تمض بضعة أسابيع على مبادرة ستيفن الفرنسي إلى التبشير ، حتى شرع صبي ألماني اسمه نيقولا في الدعوة لنفس الرسالة ، لكن بينما كان لزاماً على الأطفال الفرنسيين أن يستخدموا القوة لفتح الأرض المقدسة ، كان على الأطفال الألمان أن يحققوا غرضهم بتحويل الكفار إلى المسيحية ^(٣) .

كان قائد الحملة الألمانية صبي من كولجن Cologne يدعى نيقولا

^(١) Munro : The Children's Crusade . P. 520 .

^(٢) يوشع براور : عالم الصليبيين . ص ٨٢ .

^(٣) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . ج ٣ قسم ١ ص ٢٥٢ .

Nicholas ، ومن المحتمل أن حملته بدأت من وادي الراين **The Rhine Valley** في سنة ١٢١٢م / ٦٠٩هـ ، وكانت حملته تشتمل على الرجال والنساء والأطفال ، والرضع ، لكن الأغلبية كانت من الشباب ، وكان أساسها طبقة الفلاحين الذين تركوا عرباتهم ومحارثهم وقطعاتهم وسارعوا في الالتحاق بالموكب الذي سار عبر بلادهم ، هذا فضلاً عن الأشرار من الرجال والنساء الذين التحقوا بهذه الحملة .^(١)

فقد إدعى الصبي نيقولا بأن الرب وكله نيابة عنه بأن يقود حملة صليبية من الأطفال للأرض المقدسة^(٢) ، وادعى أيضاً بأن الوحي ينزل عليه مثل الأنبياء ، وأنه كان يتلقى الرسالة من ملك من السماء ، وأعلن مثملاً فعل ستيفن أن بإمكان الأطفال أن يتفوقوا على الكبار ، وأن البحر سوف ينفرج أمامهم فيهيئ لهم طريقاً يجتازونه إلى الأرض المقدسة ، بل أعلنوا بأنهم سيتمكنون من السير فوق الأمواج دون أن تبطل أقدامهم .^(٣)

تناقل نيقولا مع أصحابه المؤمنين في السير إلى روما ، فاستقبلهم في روما الباب أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م / ٥٩٥ - ٦١٣هـ) واشتد تأثره بتقواهم ، ولكن أثارت حماقتهم حيرته ، ففي حزم مقرون بالعطف طلب إليهم أنه لا بد أن يعودوا على الفور إلى بلادهم ، فإذا ترعرعوا فينبغي عندئذ أن

(١) Munro : The Children's Crusade . P. 520 .

(٢) Robert Duncan : The Power Of Apilgrimage. P. 44 .

(٣) د/ عبد الغني عبد العاطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . مجلد ٢ ص ١٧٣ - ١٧٥ .

يوفوا بنذورهم ، وأن يسيروا للقتال من أجل الصليب ^(١) .

وكان هؤلاء الأطفال قد صرحوا عندما وصلوا إيطاليا بأنهم سيعبرون البحر ، وأنه سوف يجف أمامهم ويعيدوا أورشليم والأرض المقدسة ، وعندما أسوا من فكرة جفاف البحر شعروا بالإحباط ، والهلاك من قلة الطعام والشراب ، وتم سلب ونهب العديدين منهم عن طريق اللمبارديين **Lembards** ، كما تم بيع العديد منهم ، كما أن بعضاً من الناس الكرماء الذين أمدهم بما يطلبون عندما كانوا في طريقهم للقدس ، تحولوا عنهم ، ولم يعطوا لهم آذاناً صاغية ، ولم يستجيبوا إلى توسلاتهم ، وكناتوا يشيرون باستهزاء إلى الفتيات العذارى اللاتي ذهبن بغزيرتهن ، ورجعن يحملن أطفال العار على صدورهن . ^(٢)

وقد استبد الغضب بالآباء الذين فقدوا أطفالهم وأصرروا على إلقاء القبض على والد نيقولا الذي حمله المجد الكاذب فيما يبدو على تشجيع ابنه ، فقبضوا عليه وشنقوه ^(٣) ، أما مصير الطفل نيقولا نفسه فيقال إنه قد أوفى بنذره وأبحر إلى الأرض المقدسة ، وأنه شارك في الحملة الصليبية الخامسة واشترك في القتال أثناء حصار دمياط ، وأخيراً عاد إلى وطنه ، وآخرون يقررون إنه مات في إيطاليا . ^(٤)

^(١) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . جـ ٣ قسم ١ ص ٢٥٤ .

^(٢) Munro : The Children's Crusade . PP.522 – 523 .

^(٣) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . جـ ٣ قسم ١ ص ٢٥٤ .

^(٤) د/ عبد الغني عبد العاطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . مجلد ٢ ص ١٧٩ – ١٨٠ .

ذكر أحد الكتاب على لسان البابا أنوسنت الثالث **Innocent III** ، تعجبه بقوله : إن هؤلاء الأطفال أصابونا بالعار ؛ لأننا كنا نأمن بيننا قاموا لنجدة الأراضي المقدسة ^(١) ، ولم يكن البابا أنوسنت الثالث من البساطة بحيث يترك هذا الحدث - صليبية الأطفال - يمر دون الاستفادة منه ؛ لأنه في أعقاب ذلك مباشرة في عام ١٢١٣م / ٦١٠هـ أرسل مبشره للدعوة لحملة صليبية جديدة ضد المسلمين لاستعادة بيت المقدس ، ثم بدأت تظهر الرؤى المقدسة ، ففي سنة ١٢١٦م / ٦١٣هـ أثناء جذوة الحماس في التبشير والإعداد للحملة الصليبية ، بدأ يتردد ما صدر عن الشعب من رؤيات عن الصلبان السابحة في الهواء ، والتي ذاعت تفاصيلها ، كما أن البابا أنوسنت الثالث نفسه كان معتقداً بأن نبوءة دانيال على وشك أن تتحقق . ^(٢)

لقد انتهت صليبية الأطفال نهاية مؤلمة ، تثير العطف والشفقة فكان هناك فريق من الناس الذين أظهروا تعاطفاً واضحاً مع الأطفال وأشفقوا عليهم ، واعتبروا أن هذه الحركة كانت نتيجة الإلهام السماوي أو رسالة من أحد الملائكة أو إلى الرؤى المقدسة ، أما الفريق الآخر فقد تصور أن هذه الحملة لم تكن من فعل الله ولكنها كانت من عمل الشيطان ، وهكذا تحولت صليبية الأطفال من تعبير عن واقع اجتماعي وديني وسياسي للغرب المسيحي في العصور الوسطى ، إلى

^(١) Munro : The Children's Crusade . P.524 .

^(٢) د/ عبد الغني عبد العاطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . مجلد ٢ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

مجموعة من الأساطير تعبر بدورها عن الجو الفكري والنفسي السائد .^(١)

وهكذا أكدت الحركة الصليبية أنها " موهوبة " بالفعل فى اغتيال براءة الطفولة ، بالزج بها فى أتون الصراع الصليبي - الإسلامي - كما أكدت الحركة أنها لم تغادر مرحلة عمرية إلا وتناولتها وأثرت فيها ، وأن جميع الأعمار شاركت فى أكبر " تظاهرة " استعمارية فاشلة فى تلك العصور ، وأن مشاركة الجميع فيها لم تضمن لها النجاح بأى حال من الأحوال .^(٢)

^(١)د/ عبد الغنى عبد العاطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . مجلد ٢ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

^(٢)د/ محمد مؤنس عوض : الحروب الصليبية - دراسات فى التاريخ المقارن - ط - دار العالم العربي - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠ م . ص ١٧٧ .

رؤى وأحلام جماعة الفرنسيسكان والحملة الصليبية الخامسة

يعتبر القديس باخوميوس St. Pachomius (٢٩٢ - ٣٤٨ م) وهو راهب مصري مشهور من رهبان المسيحية الأولى - أول من وضع قواعد للرهبنة - ويعتبر هو مؤسس الديرية الاجتماعية Cenobitism ، إذ بعد مرور عدة سنوات على اعتناقه المسيحية ، اختار باخوميوس حياة العزلة ، فأقام في جزيرة على النيل ، حيث قيل إنه بعد فترة طويلة من الصيام ، ظهر له ملاك أسر إليه بتعليمات لبناء دير ، ووضع قواعد (*) يهتدى بها الرهبان في حياتهم ، ولم يمتد وقت طويل حتى انضمت إليه آلاف كثيرة من النساك ، وعز الناس إليه المعجزات واعتبروه قديساً ، وقد ترجم القديس جيروم St. Jerome قواعد الديرية التي وضعها باخوميوس إلى اللغة اللاتينية ^(١) ، ومنها انتشرت الرهبنة بعد ذلك في كل أوروبا .

ويستفاد من الرواية السابقة أن الرؤى والأحلام المقدسة كان لها دور كبير في وضع قواعد العبادة والطقوس المسيحية منذ القدم ، لكن لم يكن القديس باخوميوس هو الوحيد الذي وضع بعض قواعد الطقوس المسيحية عبر طريق الرؤى والأحلام المقدسة ، بل نجد في المسيحية الغربية من شابهه في هذا الأمر

(*) تؤكد العقيدة الإسلامية على أن فكرة الرهبنة من ابتداع رجال الدين المسيحي ، وأنها ليست من التعاليم التي أمر بها السيد المسيح عليه السلام ، وهو ما يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَرَهَبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ سورة الحديد ، آية : ٢٧ .

(١) د/ محمود سعيد عمران : حضارة أوروبا العصور الوسطى . ص ١٠١ - ١٠٢ .

بل وفى عصر الحروب الصليبية ذاتها .

فقد كان هناك عيد فى العصور الوسطى المسيحية يعرف بعيد جسد المسيح Corpus Christ ، كان يحتفل فيه بالتناول أو الإفخارستيا ^(٥) Eucharist أو العشاء الأخير ، وكانت القديسة جوليانا فى القرن الثالث عشر الميلادي فى بلجيكا ، أول من دعا إلى هذا الاحتفال ، عندما قالت إنها رأت رؤى متعددة ظهر فيها القمر مكتملاً فيما عدا بقعة سوداء ، وأن المسيح أخبرها أن سبب هذه البقعة السوداء أنه لا يوجد عيد ، ولا احتفال يقام على شرف (الإفخارستيا) وساعدها كبير الأساقفة فى إقامة هذا الاحتفال . ^(٦)

وتعني عقيدة التجسد Incarnation باختصار تجسد الله فى يسوع المسيح أو تحول الكلمة إلى لحم كما ورد فى إنجيل يوحنا ، وقد تصدى لدراسة هذه العقيدة وتحليلها على ضوء المعارف الحديثة ، سبعة من علماء اللاهوت وفلاسفة الدين المتخصصين فى العهد الجديد ، وانتهوا من هذا التحليل إلى نتيجة خطيرة صدمت العامة وأصابت رجال الكنيسة المتزمتمين بالذعر ، فقد اتضح أن عقيدة التجسد المسيحية لم تزدد عن كونها مجرد أسطورة انتقلت إلى المسيحية من البينات الثقافية المجاورة فى الشرق القديم وبلاد اليونان ، وقد نشرت أبحاث هؤلاء السبعة فى كتاب حمل عنوان (أسطورة تجسد الإله) The Myth Of

^(٥) إفخارستيا Eucharist : كلمة يونانية الأصل تعني الشكر ... وتعني الإفخارستيا فى معناها الحاضر والحصري ، إما الاحتفال بالسر الذى أسس فى يوم خميس الأسرار ، وإما ما يقدم ويقدم ويمنح فى هذا الاحتفال (جسد ودم المسيح) ، أى الخبز والخمر اللذان يقدسان . اليسوعى : معجم الإيمان المسيحي . ص ٥٠ .

^(٦) د/ إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم . ج ١ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

Jodincornate ، وهم رجال دين متخصصون فى الأنجيل وفى الإلهيات بشكل عام .^(١)

أما الجماعات الرهبانية التى كان لها دور كبير فى استكمال فعاليات وأحداث الحركة الصليبية ، فكانت جماعة الفرنسيسكان ، والتى كانت الرؤى والأحلام هى الأساس فى تكوين جماعة الرهبان هذه .

يرجع تأسيس جماعة الفرنسيسكان هذه إلى القديس فرانسيس الأسيزى St. Francis Of Assisi واسمه الأصلي جيوفاني فرانسكو برناردو ، المولود فى مدينة أسيز ، وهى بلدة صغيرة فى إقليم أمبريا بوسط إيطاليا ، وكان مولده فى عام ١١٨١م / ٥٧٧هـ ، وانتهت حياته فى عام ١٢٢٦م / ٦٢٣هـ ، وقد عرف باسم أسيز نسبة إلى مسقط رأسه ، وكان أبوه تاجراً غنياً من تجار الأقمشة^(٢) ، فغدا فرانسيس شاباً مرحاً ، ثم طراً على حياته ما غيره تغيراً كلياً ، إذ اشترك ذات يوم فى معركة بين بلدته وبلدة بيروجيا Perugia المجاورة ، فوقع أسيراً ، وظل فرانسيس فى أسره مدة ، مرض أثناءها مرضاً كشف عن صفات العبقريّة الدينية التى انطوت عليها نفسه .^(٣)

وبعد شفائه بقليل صادف فى طريقه متسولاً ، وقد تعرف عليه فهو شخص كان يعرفه ثرياً فيما مضى ، فاستبدل فرانسيس بملابسه ملابس المتسول الفقير ، وأعطى الرجل عباءته الجميلة الأنيقة وارتدى ملابس المتسول المهلهلة

(١) حسن طلب : سبعة ضد المسيح . مجلة إبداع . العدد الأول . يناير ١٩٩٨م . ص ٥ - ٦ .

(٢) د/ محمود سعيد عمران : حضارة أوروبا العصور الوسطى . ص ١١٤ .

(٣) هـ . فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى . ج ١ ص ٢٣٤ .

الرثة ، وفى تلك الليلة رأى فى نومه أنه يدخل بيتاً جميلاً يحوى جميع صنوف الأسلحة ، والمجوهرات النفيسة والملابس الأنيقة ، وقد رسم عليها كلها علامة الصليب ، ووسط هذا الثراء وقف السيد المسيح يقول له : هذه الأشياء أدخرها لخدامي وأتباعي ، أما الأسلحة فأتنا أكلدها لأولئك الذين يدافعون عن قضيتي ، ويندودون عن رسالتي ، وبعد أن استيقظ فرانسيس شعر أن هذه دعوة ليكون جندياً ، وبعد هذه الرؤيا مباشرة ذهب ليصلي فى كنسية سان دامياتو ، وهي شبه مهدمة ، وعندما ركب ليصلي سمع صوتاً^(*) ، يقول : فرانسيس أعد بناء كنيسة التي أصبحت حطاماً . فأخذ الأمر بحرفيته ، وباع بعض البضائع ، وأعطى ثمنها لقساوسة سان دامياتو ليعيدوا بناء الكنيسة ، وغضب والده غضباً شديداً ، حتى أن فرانسيس اضطر للاختباء فى كهف عدة أيام ليتقي شره ، وعندما عاد إلى المدينة كان على حال من التعب والإرهاق ، حتى أن أحداً لم يعرفه ، وظنه والده قد أصيب بمس من الجنون ، فحبسه فى حجرة من حجرات المنزل ، لكن أمه أطلقت سراحه ورجته فى الوقت ذاته أن يطيع والده ، وأن يكف عن سلوكه الغريب ، فأخذه والده إلى المطران وفى حضور هذا المطران خلع فرانسيس ثيابه الأنيقة وألقى بها تحت أقدام والده ، وهو يقول : من الآن فصاعداً سوف أعرف أباً ، لكنه يعيش فى السماء فأخذ المطران ملابس فرانسيس ، وغطى بها جسده العاري . كان فرانسيس فى ذلك الوقت قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، ومن ذلك الحين بدأ فرانسيس يرعى المجنومين ، ويتسول ، ويهيم فى الجبال ،

(*) ذكر بأنه سمع صوت المسيح نفسه يطلب منه أن يتخلى عن كل شئ لإعادة بناء الكنيسة .

ريمون ستانبلوى : مفاتيح أورشليم القدس . ترجمة / عابدة الباجوري . ط - المجلس

الأعلى للثقافة - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٤م . ص ١١٨ .

وأخيراً : عاش في صومعة قرب كنيسة سانتا ماريانة Santa Mariana ، وسرعان ما انضم إليه الأتباع والمريدون الذين أرادوا أن يعيشوا حياته البسيطة .^(١)

وكان فرانسيس الأسيزي كلما ازداد بالامتناع عن إرضاء رغبات الجسد ، وعن الحياة الطيبة ، كلما ازداد تأثيره على عقول المستمعين إليه^(٢) ، ثم ذهب فرانسيس إلى روما لينال التصديق على نظامه الديني ، غير أن البابا أنوسنت الثالث اعتقد أنه مجنون ، إلا أن البابا رأى في المنام أن الكنيسة تترنح ولم يمنعها من السقوط سوى إمساك فرانسيس بها ، وفي الحال أرسل إلى فرانسيس ووافق على نظامه وعلى حقه في الوعظ ، وازداد عدد أتباعه فأرسل إلى البلاد الأخرى إرساليات للتبشير^(٣) ، وكان لفرانسيس الأسيزي هذا دور مهم في الحملة الصليبية الخامسة كما سيذكر لاحقاً .

في هذا الوقت كانت قد ظهرت في الغرب الأوروبي بوادر الدعوة لحملة صليبية جديدة ، فكان من الطبيعي وكما هو معتاد ، أن يتم إحياء سلاح الرؤى والأحلام المقدسة ، لحث الناس على الاشتراك في هذه الحملة التي تعرف بالحملة الصليبية الخامسة ، والتي كان مقصدها الأساسي مصر .

يقول أوليفر أوف بادربون عن أحداث ما قبل الحملة الصليبية الخامس

(١) د/ إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم . ج ١ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٢) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ . الموسوعة الشاملة . ج ٣٩ قسم ١ ص ٨٥٦ .

(٣) د/ إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم . ج ١ ص ٣٩٦ .

فى مقاطعة كوبون التى دعى فيها بنفسه لهذه الحملة ^(١) : " عاشت مقاطعة كوبون حالة من الجيشان للعمل فى سبيل خدمة مخلص العالم من خلال عدد من العلامات اللاتى ظهرت فى السماء ، لأنه ظهر فى السماء فى مقاطعة كوبون ، وفى أسقفية مونستر فى قرية فى فريزيا اسمها بيدوم **Bedum** فى شهر آيار ، عندما جرت الدعوة لحمل الصليب هناك ، وقتها ظهر شكل ثلاثى فى السماء ، شكل أبيض متجه نحو الشمال وآخر متجه نحو الجنوب له الشكل نفسه واللون ، أما الثالث فقام فى الوسط ، وهو مظلل بلون ، وله تشعبات الصليب ، وجسد إنسان ممدد عليه ، ويداه مرفوعتان وممدودتان مع علامات المسامير على اليدين والقدمين مع رأس مطأطأ وكان هذا الشكل الوسيط فيما بين الشكلين الآخرين ، حيث لم تظهر عليه أية علامات لشكل جسم إنسانى " ، وقد ظل المبشرون طوال ربيع سنة ١٢١٦م / ٦١٣هـ يجوبون أنحاء العالم المسيحى بالغرب ، حتى امتد نشاطهم إلى أيرلندا واسكتلندة ، وأعلن أساتذة جامعة باريس أن كل من وعد بالاشتراك فى الحملة الصليبية ، ثم حاول أن يتجنب الوفاء بوعده يعتبر مرتكباً لجريمة ، عقوبتها الإعدام ، وتردد ما صدر عن الشعب من رؤيات عن الصليبان السابحة فى الهواء ، والتى ذاعت بتفاصيلها ^(٢) .

ويعتبر أوليفر أوف بادربون — وهو من المعاصرين للأحداث ومن الذين اشتركوا فى حصار دمياط فى الحملة الصليبية الخامسة — من أكثر المؤرخين

^(١) أوليفر أوف بادربون : تاريخ دمياط . ترجمة د/ سهيل زكار ، نشر ضمن الموسوعة الشاملة فى تاريخ الحروب الصليبية . ط — دار الفكر — سوريا — لم تذكر سنة الطبع . جـ ٣٣ ص ٣٦ .

^(٢) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . جـ ٣ قسم ١ ص ٢٥٨ .

تفصيلاً لهذه الصليبان المرنية ، يقول أوليفر أوف بادربورن ^(١) : " وفى وقت آخر ومكان آخر فى قرية فى فريزيا ، ظهر أثناء وقت الدعوة لحمل الصليب على موازاة الشمس صليب لونه أزرق ، والذين رأوا هذا كانوا أكثر عدداً من الذين رأوا المشهد المتقدم ، وكان المشهد الثالث فى أسقفية أوترخت فى قرية دكوم Dokkum حيث كان القديس بونيفيس Boniface قد استشهد ، ففي أثناء الاحتفال بعيد هذا القديس نفسه احتشد عدة آلاف من أجل هذا القديس نفسه ، ظهر صليب أبيض كبير وكانت حزمة ضوئية وضعت على الأخرى بشكل مصطنع ورأينا هذه العلامة جميعاً ، وقد تحركت الآن بشكل تدريجي من الشمال إلى الجنوب ، ونحن نعتقد أن المشهدين الأخيرين قد ظهرا لإزالة جميع الغموض المتعلق بالمشهد الأول " .

وقد ذكر هذه الرؤى أيضاً مؤرخ آخر هو روجر أوف ويندوفر الذى يقول عن العلامات التى ظهرت فى السماء والتى أثارت مقاطعة كولون للاشتراك فى الحملة الصليبية الخامسة ^(٢) : " فى اليوم السادس قبل أحد الشعاتين ^(*) استيقظت مقاطعة كولون لأداء واجبها إلى المخلص ، ظهر فى بلدة بيبون Bebon فى فريزلاند ، فى السماء شكل الصليب فى ثلاثة أماكن واحد متجه نحو الشمال ولونه أبيض ، وآخر باتجاه الجنوب له الشكل نفسه واللون ، والثالث فى الوسط

(١) تاريخ دمياط : الموسوعة الشاملة . جـ ٣٣ ص ٣٧ .

(٢) ورود التاريخ : الموسوعة الشاملة . جـ ٣٩ قسم ٢ ص ٧٣٢ - ٧٣٣ .

(*) أحد الشعاتين Palm Sunday : هو الطواف الذى يحمل فى أثنائه رجال الأكليروس - الدين - والشعب الشعاتين - زحف النخيل - إحياء لذكرى دخول يسوع ظافراً إلى أورشليم اليسوعى : معجم الإيمان المسيحي . ص ٢٠ .

لونه مظلم ... وفى بلدة أخرى فى فريزلاند اسمها فوسرهوز Fuserhuse ظهر قرب الشمس هناك صليب له لون أزرق ، وقد رآه أناس من أكثر من الذين رأوا الصלבان المتقدمة الذكر ، وظهر صليب ثالث فى بلدة اسمها دوكتام Doctham ... وقد رأى ذلك عدة آلاف " .

ولم يكتف الصليبيون عن ذكر مثل هذه الرؤى حتى بعد وصولهم إلى دمياط ونجاحهم بالرؤى السابقة فى حشد هذه الجموع التى هاجمت دمياط فى الحملة الخامسة . فعندما وصلوا إلى دمياط حدث خسوف كامل للقمر ، ففسر الصليبيون ذلك أنه يشير إلى هزيمة المسلمين ؛ لأنهم تنبأوا ، فعزو وقوع وقائع كبيرة إلى نقص أو زيادة تلك الظاهرة الفلكية . (١)

وفى نهاية شهر يوليو ١٢١٩م / ٦١٦هـ وصل إلى المعسكر الصليبي أمام دمياط راهبان إيطاليان بئسان ، يرتديان ثياباً رثة قذرة وحفاة ، وباستجوابهما ، أفادا بأن أحدهما يدعى فرانسوا من بلدة أسيز فى إيطاليا ، والآخر يدعى دى رينى ، يريدان إظهار الحق للمخالفين فى العقيدة ، وهدايتهم لاعتناق المسيحية ... فذهبا إلى معسكر المسلمين للتبشير بالديانة المسيحية ، لم يصدق الحراس المسلمون أعينهم وهم يرون اثنين من الغرباء يتجهان نحوهما ، اثنين من الفرنجة يرتديان ملابس رثة وحفاة ومغطيان بالوحل وعزل من السلاح فقابل فرانسيس الأسيزى الملك الكامل الأيوبي الذى سألهم عن سبب حضورهما وماذا يريدان ؟ ووسط دهشة الجميع رد فرانسيس بكل بساطة إنه جاء يطلب من سلطان مصر ومن الجميع نبذ الخوف والاعتراف بالديانة المسيحية كحقيقة

(١) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ . الموسوعة الشاملة . جـ ٣٩ قسم ٢ ص ٧٥٣ .

وحيدة .^(١) وقد جرت المقابلة بينهما ، وأخذ الراهب المسيحي يعظ الملك المسلم ويتكلم عن المسيح كثيراً ، ثم تلت هذه المقابلة ، مقابلات أخرى ، كان الراهب يحاول فيها شرح الدين المسيحي وبيان فضائله ، فيصغى الملك الكامل لحديثه بكل بشاشة وطيبة خاطر ... وكان من كرم أخلاق الملك الكامل أن يتقبل بصدر رحب ، الاجتماع بالراهب فرانسيس الأسيزي عدة مرات ، والإصغاء إلى مواظبة في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون مدينته ويقتلون رعيته^(٢) ، غير أن السلطان رفض العرض وأعطاه الأمان حتى يصل إلى معسكره .^(٣)

وأثناء وجود فرانسيس الأسيزي في المعسكر الصليبي أمام دمياط لم يبخل عليهم في أحلامه ورؤياه ، وإن كانت في غير صالح الصليبيين ، إلا أنها كانت تتماشى مع فكره الخاص الداعي إلى نبذ الحرب عموماً ، ففي أواخر أغسطس سنة ١٢١٩م / ٦١٦هـ كانت هناك استعدادات لمعركة كبيرة ، وفي الليلة السابقة للمعركة نصح فرانسيس الصليبيين بعدم خوضها متنبئاً لهم بالهزيمة وبالرغم من ذلك ، وقعت المعركة ، ومنى الصليبيون فعلاً بهزيمة منكرة ، وأبيد أكثر من أربعة آلاف جندي .^(٤)

وقد عاد فرانسيس سالماً إلى إيطاليا ، وبعد سنوات اعتزل فرانسيس وذهب ليعيش في مغارة في الجبل ، حيث مر هناك أكثر من الرؤى ، ومن

(١) ستانبلوى : مفاتيح أورشليم القدس . ص ١٠٩ - ١١٣ بتصرف بسيط .

(٢) برجوي : الحروب الصليبية . ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٣) ستانبلوى : مفاتيح أورشليم القدس . ص ١١٣ .

(٤) المرجع السابق : ص ١١٠ .

أشهرها أنه تلقى الذنب - أثر الجرح الباقي على الجلد - المتبقية من جراح المسيح فظفر بذلك على لقب فرانسيس الملائكي ، وهناك الكثير من الحكايات عن ارتباط فرانسيس بالحيوانات ، وحبها لها ، فهو يعظ الطيور عجة الله ، أما الذنب جوبيو Gubbio الذى ظل يروع الريف ويتلف الزرع فقد تحدث إليه القديس فرانسيس ، وأخبره أن الناس سوف تأتي إليه بطعامه شريطة ألا يهاجم أحد من السكان ، فأطاع الذنب القديس وأصبح صديقاً للناس ^(١) ، إلى جانب غيرها من الخرافات والأساطير التى تدل على مدى الهوس الديني الذى أصاب جميع فئات الغرب الأوروبي وقتذاك .

(١) د/ إمام عبد الفتاح إمام : معجم ديانات وأساطير العالم . ج ١ ص ٣٩٦ .

رؤى وأحلام الحملة الصليبية السادسة

كان التيار الديني العاطفي لدى شعوب أوروبا هو المطية التي امتطتها الكنيسة في العصور الوسطى لتحقيق مآربها السياسية ، وبينما فهم الناس في أوروبا آنذاك مثل هذه الأمور على أنها وسيلة للخلاص المادي والروحي ، نظرت الكنيسة إلى الفكرة الصليبية باعتبارها إحدى أدوات السياسة البابوية ، في الداخل وفي الخارج على حد سواء ، ولم تختف هذه الومضات المتهوسة في التاريخ الأوروبي الوسيط ، فقد تجلت في سماء المجتمع الأوروبي عدة مرات ، منها ما حدث سنة ١٢٣٧م / ٦٣٥هـ ، ١٢٥١م / ٦٤٩هـ ، ١٢٨٤م / ٦٨٣هـ ، إعلاناً عن روح التدين الهستيري .^(١)

غير أنه كانت هناك حركات للهوس الديني الأوروبي سابقة لهذه التواريخ الآتفة الذكر ، إذ بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة على دمياط ، بدأت حركة إذاعة العديد من الرؤى والأحلام المقدسة في الغرب الأوروبي لحس الناس للاستعداد لحملة صليبية جديدة ، هي الحملة الصليبية السادسة ، يقول المؤرخ روجر أوف ويندوفر عن مثل هذه الرؤى^(٢) : " في شهر حزيران سنة ١٢٢٧م / ٦٢٥هـ ، جرت حركة إثارة كبيرة لمساعدة الصليبيين من قبل المسيحيين في جميع أرجاء العالم ، وكانت أعدادهم كبيرة جداً ، حتى قيل بأن أربعين ألفاً من الرجال المجريين من انجلترا وحدها قد زحفوا وإلى جانبهم النساء والشيوخ ، حيث أظهر الرب نفسه في السماء ، بالمسامير ، ومطعون بالحربة ، وملطخ بالدم

(١) د/ عبد القني عبد العاطي : صليبية الأطفال . ندوة التاريخ الوسيط . مجلد ٢ ص ١٨٥ .

(٢) ورود التاريخ : الموسوعة الشاملة . جـ ٣٩ قسم ٢ ص ٨٥٠ - ٨٥١ .

ورأى هذا المشهد عدد كبير من الناس ، وكان من بينهم تاجر كان يحمل سمكاً للبيع قرب أوكسبردج Uxbirde ، فقد أصيب بالدهشة تجاه ذلك المشهد الغريب وقام في اليوم التالي بإخبار كل واحد بشكل علني عن الرؤيا السماوية التي شاهدها ، وصدق كثيرون هذه الحكاية ، لكن بعضهم لم يصدقوها ، حتى اقتنعوا بتصدقها بواسطة الرؤى الكثيرة التي ظهرت في الوقت نفسه لكثير من الناس في أماكن مختلفة " .

كان فريدريك الثاني Frederick II (١٢١٥ - ١٢٥٠ م / ٦١٢ هـ - ٦٤٨ هـ) قد تولى عرش الإمبراطورية الألمانية سنة ١٢١٥ م / ٦١٢ هـ ، وأخذ شارة الصليب في تلك السنة لكي يضمن تأييد البابا أنوسنت الثالث له في عرش الإمبراطورية ، بيد أنه كان عازفاً عن القيام بحملة صليبية ؛ لأنه كان يطمح إلى بسط نفوذه على كل إيطاليا بما فيها أملاك البابوية ومدن الشمال التجارية الغنية ، ولذلك أخذ يماطل في الوفاء بندره الصليبي ^(١) ، لذلك كان من الطبيعي أن تناله - بسبب موقفه من القضية الصليبية المتمثل في المماطلة - بعض الرؤى والأحلام التي تنقص من قدره وتبين غضب الرب عليه ، يقول روجر أوف ويندوفر عن مثل هذه الرؤى ^(٢) : " أظهر المخلص نفسه إلى المسيحيين ، وهو معلق على الصليب ، مخروق بالمسامير ، وملطخ بالدم ، وكأنه كان متقدماً بالشكوى إلى كل مسيحي ، حول الأذى الذي لحق به من الإمبراطور " . لكن بزواج الإمبراطور فريدريك الثاني من يولاندا Yolanda ابنة

(١) د/ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ١٥٤ .

(٢) ورود التاريخ : الموسوعة الشاملة . جـ ٣٩ قسم ٢ ص ٨٥٥ .

الملك الصليبي الراحل يوحنا بريين ملك عكا ، جعل منه ملكاً على بيت المقدس ومسئولاً عن الصليبيين في الشرق ، ومن ثم بدأت المراسلات بينه وبين السلطان الكامل الأيوبي ، وأسفرت هذه المراسلات عن قدوم الإمبراطور إلى فلسطين سنة ١٢٢٨م / ٦٢٥هـ ، وكان تحت أمرته جيش صغير قوامه ستمائة فارس فقط وأسطول هزيل ، وكانت أهم نتائج هذه الحملة العجيبة ، التي تجنبت إراقة الدماء أن عقدت هدنة مدتها عشر سنوات بين الكامل الأيوبي وفردريك الثاني على أساس أن يتسلم الإمبراطور مدينة القدس ويبقى في حوزة المسلمين المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمناطق الريفية ، وفي المقابل يتعهد فردريك بمنع أي حملة صليبية طوال عشر سنوات من أوروبا .^(١)

وفي عام ١٢٢٩م / ٦٢٧هـ - وهو نفس العام الذي عقد فيه فردريك الثاني المعاهدة مع السلطان الكامل الأيوبي - كتب منجمو طليطلة^(٢) رسائل إلى جميع المسيحيين ، كان محتواها كما يأتي : " إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح الذين يمكن أن تصلهم هذه الرسائل ، من المعلم جون داود الطليطلي ، إنه منذ سنة ١٢٢٩م سوف تكون الشمس في شهر أغسطس لمدة سبع سنوات في برج الميزان وسوف تكون هذه شارة على حوادث هائلة مرعبة ، وسوف تكون هناك عواصف ، وسوف يرتفع البحر ويصبح عالياً بشكل غير معتاد ، وسوف تظلم الدنيا كلها ، وسيصدر عنها أصوات مرعبة وسوف تدمر عدة مدن

(١) د/ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) طليطلة : مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، وهي على شاطئ نهر تاجه - في أسبانيا حالياً - . الحموي : معجم البلدان . ج ٤ ص ٣٩ .

وتسويها بالأرض خاصة القاهرة وبغداد ، وستكون هناك مذابح ومعارك فى الشرق والغرب وسيثور خلاف بين المسلمين ، وسيتركون مساجدهم وسيلتحقون بالمسيحيين ويتحدون معهم وبناء عليه عندما اكتشفنا نحن بشكل عام هذه الحقائق مع أصحابنا من المنجمين فى طليطلة رأينا من الموائم كشفها إليكم لتقوموا بنشرها إلى أناس ليسوا على دراية بها " . (١)

مما لاشك فيه أن هذه التكهّنات التى تم نشرها فى كل أنحاء الغرب الأوروبى والتى لم يقع منها أى شئ كانت عبارة عن رد فعل لاتفاقية تسليم القدس للإمبراطور الألمانى ، فلم يكن الصليبيون أيضاً راضين عن هذا الصلح ، إذ كان من أشد الأمور عليهم ، تعهد فردريك بمساعدة الملك الكامل ومنع الإمداد الجديد إلى الإمارات الصليبية ، مع أن تلك المعاهدة كانت لمصلحتهم ، والواقع أن هذا الصلح جعل بيت المقدس مدينة مشتركة بين المسلمين والمسيحيين إذ احتفظ كل منهم بأماكنه المقدسة ، ولكن لم يكن مرضياً عنها لا من المسلمين ولا من الصليبيين لأسباب مختلفة . (٢)

وفى الوقت نفسه أرجع الصليبيون فى الغرب الأوروبى رجوع القدس إلى حظيرة الصليبيين بموجب هذه المعاهدة ، إلى الرؤى والتكهّنات الآتفة الذكر ، يقول روجر أوف ويندوفر عن ذلك (٣) : " يتوجب أن نلاحظ أنه فيما يتعلق بهذه الإعادة لأرض الميعاد والقدس إلى الصليبيين أن منجمي طليطلة قد كتبوا ، قبل

(١) روجر أوف ويندوفر : ورود التاريخ . الموسوعة الشاملة . جـ ٣٩ قسم ٢ ص ٨٨٢ .

(٢) سعيد برجواي : الحروب الصليبية . ص ٥٠٩ .

(٣) ورود التاريخ : الموسوعة الشاملة . جـ ٣٩ قسم ٢ ص ٨٩٥ .

حدوث هذا الفرح العام والسرور بين الصليبيين ، عن التقاء الكواكب ، وعن عواصف مرعبة من الريح ، وأن العواصف سوف تتصادم ، وأنه سيكون فى الوقت نفسه زلزال وكسوف للشمس وخسوف أيضاً للقمر ... وبالطريقة نفسها حدث أخذ الأرض المقدسة وصليب ربنا ، من قبل صلاح الدين الرجل العنيف والشديد " .

الحملتان السابعة والثامنة ونهاية الوجود الصليبي في الشرق

كان الملك لويس السابع Louis IX ملك فرنسا يحب أن يستند في أحيان كثيرة إلى أقوال القديس فرانسيس الأسيزي ، ولم يكن الملك يعرفه شخصياً فهو لم يعرف (مجنون الرب) إلا من خلال تلاميذه ، وفي الوقت الذي غطت فيه الأسطورة على الحقيقة ، فلم يكن يعرف شيئاً عن رحلة فرانسيس إلى مصر إلا من خلال ما رواه (بونا فنتورا) الرئيس الأعلى لرهبان الفرنسيسكان ، لكن لويس اقتبس من حياة القديس الذي كن معجباً به ، خشوعه وكرمه .^(١)

ويستفاد من هذه الرواية السابقة بأن الملك لويس التاسع — والذي لقب بالقديس بعد ذلك — قبل أن يندفع بحملتيه السابعة والثامنة نحو الشرق الإسلامي كان متأثراً بالقديس فرانسيس الأسيزي ، والذي كانت تحركه الرؤى والأحلام ، كما ذكر آنفاً ، أي أن لويس التاسع نان من أكبر المؤمنين بالدور الذي تقوم به هذه الرؤى في تحريك أحداث الحركة الصليبية .

في سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م تواترت الأنباء عن قرب قدوم حملة جديدة تحت راية الصليب ضد مصر ، بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا بهدف احتلال مصر ، وبسرعة عاد الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشام إلى مصر لكي ينظم وسائل الدفاع ، وكانت الاستعدادات تجري لهذه الحملة بالتنسيق بين البابا أنوسنت الرابع (١٢٤٣ — ١٢٥٤م / ٦٤١ — ٦٦٢هـ) منذ عام ١٢٤٥م / ٦٤٣هـ ، نتيجة لسقوط بيت المقدس في أيدي الخوارجية

(١) ستانبلوى : مفاتيح اورشليم . ص ٢٤٠ .

وخضوعها للصالح أيوب . وفي مايو سنة ١٢٤٩م / ٦٤٧هـ أفلعت السفن الصليبية من قبرص — مركز تجمعها — تجاه الشواطئ المصرية ، ونزل الصليبيون قبالة دمياط ، التي سقطت دون قتال ، وأخذوا يدعمون وجودهم في المدينة الأسيرة .^(١)

وبعد سقوط دمياط أرسل الملك لويس في طلب مندوب البابا لإطلاعه على هذه الأخبار السارة التي يمكن وصفها بالمعجزة ، وعزوا ذلك إلى وجود المقدسات " الصليب المقدس " وسط المتحاربين ، وفي اجتماع مع الأخبار أنشد الملك بصوت عال نشيد " أيها الرب " ثم دخل إلى دمياط^(٢) ، لكن بعيداً عن التفاصيل الدقيقة للحملة السابعة على مصر ، فبته ما إن جاء شهر المحرم سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م حتى دارت معركة رهيبة قرب فارسكور ، قضت على الجيش الصليبي تماماً وتم أسر لويس التاسع نفسه ، وبقي سجيناً فترة من الزمان ، حتى أفرج عنه لقاء فدية كبيرة ، ومقابل الجلاء عن دمياط، ثم رحل إلى عكا .^(٣)

ولم يترتب على الاستغاثات التي أرسلها القديس لويس من مقره بعكا إلى وطنه طلباً للنجدة إلا ما هو معروف بحملة الرعاة Pastoreane فقد برزت للوجود أول الحركات الفوضوية المعروفة باسم صليبية الرعاة ، ففي عيد فصح عام ١٢٥١م / ٦٤٩هـ بدأ ثلاث رجال بالوعظ بالحملة الصليبية ... وكان أحد

(١) د/ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢) ستانبلوى : مفاتيح أورشليم . ص ٢٧٤ .

(٣) د/ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ١٥٧ - ١٥٩ بتصرف بسيط .

هؤلاء الرجال راهباً مرتداً يدعى يعقوب^(*) يقال إنه جاء من هنغاريا - المجر حالياً - وكان يعرف باسم " استاذ هنغاريا " وادعى يعقوب أن مريم العذراء قد ظهرت له وهي محاطة بجيش من الملائكة وأعطته رسالة ، وكان يحملها دائماً فى يده مثلما قيل عن بطرس الناسك أنه كان يحمل وثيقة مماثلة ، ونقلاً عن يعقوب كانت هذه الرسالة تدعو كل الرعاة لمساعدة الملك لويس على تحرير الضريح المقدس ، وادعى أن الرب كان غير مسرور بالزهو والتباهي لدى الفرسان الفرنسيين ، وأنه اختار الهمل من العامة لتولى عملهم ، وهجر رعاة الغنم والأبقار من الشباب والصبية والفتيات على السواء قطعانهم ، وتجمعوا تحت الأعلام الغربية التى رسمت عليها الزيارة المعجزة للعذراء ، وقبل مضي زمن طويل انضم إليهم اللصوص والعاهرات والخارجون على القانون والرهبان المرتدين ولبس كثير من هؤلاء القادمين الجدد أيضاً زيّ الرعاة وأصبحوا جميعاً يعرفون باسم الرعاة ، وسرعان ما كان هناك جيش ، لا بد أنه كان بالتأكيد يعد ببعض الألفوف .^(١)

وكان لهذه الحملة بعض ما اتصفت به حملة صليبية الأطفال من الخصائص ، إذ أنها تماثلها فى أن الذى شرع فى تأليفها - من البداية - صبي من الرعاة ، وأنه وعد مثلما فعل قائد الأطفال ، بأنه سوف يقود أتباعه ، فيجتاز بهم البحار ، التى سوف تجف مياهها عند اجتيازهم لها ، بل أشارت الروايات إلى

(*) كان يعقوب زاهداً نحيلاً شاحباً ملتحمياً ، فى نحو الستين من العمر ، وله تأثير قوي وقادر على الكلام بطلاقة كبيرة باللغة الفرنسية والألمانية واللاتينية . د/ سبيل زكار : مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية . الموسوعة الشاملة . جـ ٤ ص ١٢٠ .

(١) المرجع السابق . جـ ٤ ص ١٢٠ - ١٢١ .

أن هذا القائد الذي اتخذ لقب " سيد البحر " لم يكن سوى ستيفن قائد حملة الأطفال ، غير أن ما اتسمت به هذه الحملة من شعور معاد للدين ، وما اتصف به الرعاة من سلوك مشين ، كان أمراً جديداً ومنذراً بالشر ، على أن الحكومة أثارها ما ارتكبته الحركة الجديدة من جرائم ، فعدت إلى قمعها دون هوادة أو رحمة ، ولم ينهض أحد لنصرة القديس لويس ، وفي سنة ١٢٥٤م / ٦٥٢هـ كان لزاماً عليه أن يعود إلى فرنسا ، بعد أن جاءه نبأ وفاة أمه بلانش .^(١)

وبعد عودته إلى فرنسا ، لم يأل الملك الفرنسي لويس التاسع جهداً فى الدعوة لحملة جديدة ضد العالم الإسلامي ، وقد لقي تجاوباً من قبل البابوية ، التى أطلقت يده فى أموال الكنائس لتدعم بها حملته ، وبالفعل انخرط فى صفوفه العديد من الأمراء والبارونات^(٢) ، غير أنه كان هناك بعض المعارضين لحملته الصليبية الجديدة ، وفى مقدمتهم كاتبه ورفيقه فى حملته على مصر المؤرخ جوانفيل ، الذى حين سمع هذا الكلام من سيده لويس ، أى عزمه على القيام بحملة جديدة ، أصابه شعور بالحزن والاكتئاب ، وفى إحدى الليالى كان جوانفيل مختلياً إلى نفسه وتساءل عن الدافع القوي الذى يجعل سيده يتسلم زمام الأمر بنفسه ، وتستمر الرواية أن جوانفيل ظل مستغرقاً فى أفكاره إلى أن غلبه النوم ورأى حلماً مزعجاً مفاده أن الملك والعديد من الأمراء والبارونات سيقربون من مكان يسمى ريمز Reims ، وأن ثمة أحداث غير طيبة سوف تحدث لهم ، فزاده هذا قلقاً على

(١) أرنست باركر : الحروب الصليبية . ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) د/ سامية عامر : الصليبيون فى شمال إفريقيا . ط - دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى

سنة ٢٠٠٢م . ص ٩٣ .

سيده وحزناً عليه ، إلى أن تذكر رجلاً يشتهر بحكمته ورجاحة عقله ، وكان يسمى ويليام ، فقص عليه هذه الرؤيا ، فأيد جوانفيل في أحاسيسه قائلاً له " فعلا سيتوجه الملك إلى قلعة ريمز وأن الرب سوف يهبه المنح والعطايا وأنه سيكون معه في كل خطواته ، وقد توجه جوانفيل على فوره حيث كان الملك والأمراء مجتمعون وقص عليه الرؤيا " . (١)

وذكر أن الملك كان مستمراً في الإعداد للحملة واتخاذ التدابير اللازمة لقيامها ، ثم يستكمل حديثه قائلاً " إن القديس لويس أعلن فجأة النبوة على المجتمعين وكان يجلس إلى جواره أبناءه الثلاثة ، والعديد من البارونات الآخرين ويبدو أنهم تشاءموا حين سمعوا ذلك " . يقول " جوانفيل " أنهم لم يقتنعوا بحديثي وطلبوا مني تدعيم ما جاء في رؤيتي من أن دماراً شديداً سوف يحدث للقوم ، وأن الرب سيكون بمثابة القلب والروح لمساعدة شعبه وإنقاذه ، وقد حزن لويس لهذا " ، وأقسم جوانفيل أنه لم يضيف حرفاً واحداً على الرؤيا التي تراءت له ، وأنه لا يستحق غضب الرب أو القوم ، ويستطرد قائلاً أنه حدث ما توقع إذ ذهب الملك ورجاله إلى قلعة قرطاجنة وحل بهم مرض شديد ومات لويس نفسه متأثراً بهذا المرض . وليس مستغرباً في مثل هذه الظروف والاستعدادات قائمة على قدم وساق للدعاية للحملة المقترحة والتبشير بها ، ظهور مثل هذه الرؤى والمنامات التي هي أقرب إلى الأساطير والخزعبلات منها للحقائق التاريخية ، إذ كان الهدف منها إثارة الحماسة الدينية لدى الناس للانخراط في سلك الحملة ، ورغم كل هذا ، فقد كان تحمس لويس لهذه الفكرة شديداً بحيث أنه لم يقف كثيراً أمام نبوءة

(١) د/ سامية عامر : الصليبيون في شمال إفريقيا . ص ٨٨ .

جوانفيل بل أسرع بالعمل الجاد من أجل إعداد القوات والأموال اللازمة للحملة .^(١)

وكان من سوء حظ الصليبيين أن أصيب لويس نفسه بالمرض ، وقد أحس بالألم يدب فى جسده أثناء احتضار ولده ، وشعر بألم شديد فى معدته وإسهال ، كما ارتفعت درجة حرارته ، وأحس بدنو أجله ، فحمل إلى فراشه وهو يتحامل على نفسه من شدة الألم ، واستشرى المرض فى كل جسده ، وتوفى فى مساء يوم الأربعاء ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٦٦٩هـ .^(٢)

إن هذا الملك الذى خلعت عليه البابوية لقب " قديس " كان رجلاً عدوانياً متبريراً ، تفوح من كلماته روح التعجرف الممقوت ، والعجرفة الفرنجية والهوس الدينى الذى كان من أسوأ رذائل الكنيسة الرومانية فى العصور الوسطى ، وهى التى دعت إلى الحركة الصليبية العدوانية ، منذ البداية طمعاً فى موارد الشرق ، وأيضاً لنشر مذهبها الكاثوليكي بحد السيف^(٣) ، حقيقة أن الإيمان كان من البواعث الأساسية التى دفعت الجيوش المسيحية للتوجه صوب الشرق ، على أن صدق إيمانهم وبساطته قادهم إلى أخطار خفية ، فقد كان النصر فى الحملة الصليبية الأولى يبدو من المعجزات ، لذا توقع الصليبيون أن المعجزات سوف تستمر كيما تنقذهم كلما ظهرت المشاكل ، بل إنهم حتى فى نهاية الحروب

(١) د/ سامية عامر : الصليبيون فى شمال إفريقيا . ص ٨٨ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٦٣ - ١٦٦ .

(٣) ستانبلوى : مفاتيح أورشليم . ص ٢٤٠ .

الصليبية كانوا متأكدين أنهم سوف يتلقون عوناً إلهياً^(١) . والواقع أن الفكرة الصليبية قد بدأت في الاحتضار ، في وقت أصبح فيه زمام المبادرة في قبضة العرب بعد أن توحدت كلمتهم واتحدت جبهتهم واتخذوا سياسة الهجوم دفعاً للعدوان ، وتعرض دعاة الحرب الصليبية في الغرب للسب والإهانة من الناس علناً وجهرأ ، في الوقت الذي بدأ فيه الناس ينفضون من حول الكنيسة اللاتينية ويخرجون على أوامرهم ، وأصبح الجهاز الكنسي في طريقه هو الآخر نحو التداعي والانهيار ، وكان المسيحيون الغربيون يسخرون من زملائهم الذين ينخرطون في حملة صليبية ضد العرب ، وكانوا يرددون " ما الفائدة من القيام بمثل تلك المغامرة التي تكلف الكثير ؟ بينما ترك المرء مصالحه الخاصة في بلاده التي تدر عليه الريح الوفير ، ليشارك في حرب لا تنتهي وقد يخسر فيها كل شيء " ، وهم أيضاً يقولون في أسلوب لاذع على لسان أحد الرهبان الغربيين في حوار باللغة اللاتينية بينه وبين الله " إنه لأحمق غبي هذا الذي يتبعك في معركة جديدة ضد العرب " ، وكانت مثل هذه الأقوال والعبارات اللاذعة تتردد على ألسنة الناس في الغرب أثناء الحملات الصليبية .^(٢)

بعد سقوط عكا لم يعد في الغرب الأوروبي جذوة الحماس التي تدفع أمراءه وسادته للمسير صوب الشرق ، مثلما حدث أيام الحملة الصليبية الأولى والثالثة ، بل إنه ليس باستطاعة غرب أوروبا أن يوجه إلى الشرق حملة شعوب مثل الحملة الصليبية الأولى ، فلم يستجيبوا مطلقاً لما قد يقوم به أمثال بطرس

(١) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . جـ ٣ قسم ٢ ص ٧٩٤ .

(٢) د/ سامية عامر : الصليبيون في شمال إفريقيا ص ٨٩ .

الناسك من دعوى مستندة إلى النبوءات ، بنفس التقوى الساذجة الجاهلة التي
اشتهر بها أجدادهم قبل قرنين من الزمن ، فقد صدمهم ما حدث من استخدام
الحرب المقدسة لتحقيق أغراض سياسية ، ومع أن نهاية الشرق الفرنجي تعتبر
أمراً محزناً ، فإنها لم تثر رد فعل عنيف .^(١)

^(١) رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية . جـ ٣ قسم ٢ ص ٧١٨ .

الصليبيون فى بلاد الأندلس

كانت أسبانيا مسرحاً لحرب صليبية غريبة ، أو بمعنى آخر حركة استرداد Reconquista قام بها المسيحيون الغربيون ضد مسلمي أسبانيا ، وقد اشتركت هذه الحروب الغربية مع مثيلاتها فى الشرق فى بعض الصفات الصليبية وليس جميعها ، فهي حرب تحرير للأراضي المسيحية القديمة ، قادتها البابوية وأيدتها ، وهي أيضاً شروع فى روح دينية ، وضع المحاربون فيها أنفسهم تحت حماية الله ، حيث هرع الكثيرون من الفرسان من مختلف دول أوروبا إلى بلاد الأندلس — أسبانيا والبرتغال حالياً — ليساهموا فى حروب صليبية ، هي أقرب سبيلاً وأيسر مشقة وعناء .^(١)

فى سنة ١٠٦٣م / ٤٥٦هـ ، منح الباب إسكندر الثاني (١٠٦١ - ١٠٧٣م / ٤٥٣ - ٤٦٦هـ) المحاربين المسيحيين الذين يقاتلون مسلمي الأندلس غفراناً ، وإعفاء من التوبة ، واعتبر قتالهم للمسلمين بمثابة تكفير عن خطاياهم ، وكان هذا التصرف جزءاً من سياسته العامة لتشجيع الحرب ضد المسلمين والتي عرفت باسم حرب الاسترداد ، ففي خطاب موجه من البابا إسكندر الثاني إلى أسقف ناربون Narbonne نجده يستثني ذبح المسلمين من التخريم الكنسي العام للقتل ، كما يكشف بوضوح تام عن مساندته للحرب الكاثوليكية ضد المسلمين .^(٢)

^(١) د/ علية الجنزوري : الحروب الصليبية - المقدمات السياسية - ط - الهيئة المصرية

العامّة للكتاب سنة ١٩٩٩م . ص ٣١٥ .

^(٢) د/ قاسم عبده قاسم : الخلفية الأيديولوجية . ص ٢٠ .

بعد سقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ م / ٤٧٨ هـ — ، عقد الملك ألفونسو الخامس مع سكانها المسلمين اتفاقية ، غير أنها لم تنفذ بشكل جاد ، فعلى سبيل المثال ، وعد الملك ألفونسو بأنه سيسمح للمسلمين بالإبقاء على مسجدهم لأداء العبادة ، ولكن أثناء غيابه استطاع رهبان دير كلوني Cluny أن يقتعوا الملكة بتحويل المسجد إلى كنيسة مسيحية ، وهذه الواقعة توضح روح الحروب الصليبية الجديدة التي دخلت إلى أسبانيا من خلال رهبان دير كلوني ، وبالرغم من ذلك كانت هذه الروح مازالت في بدايتها .^(١)

وبعد سقوط طليطلة هرع كثير من الفرسان النصارى من مختلف الأمم إلى أسبانيا ليساهموا في حربها الصليبية ، وهي أمنية أقرب وأيسر منالاً ، وكان لذلك أثره أيضاً في تقوية جانب ملوك أسبانيا النصرانية ضد المسلمين ، وبعد أن اندلعت شرارة الحروب الصليبية في الشرق ، حرم البابا أوربان الثاني على الأسبان أن يشتركوا في الحرب الصليبية في المشرق ؛ لأن أعداء النصرانية "المسلمين" يهددونهم في عقر دارهم ، وكفى النصارى الأسبان فخراً أن يقاتلوا المسلمين في الغرب^(٢) ، على حد تعبير البابا أوربان الثاني .

هذا وبما أن الحرب الصليبية قد تشابهت في بلاد الشام وبلاد الأندلس ، من حيث العدو الواحد "المسلمين" والمعرض الواحد "البابوية" والمنفذ الواحد

(١) Charles . E . Chapman : Ahistory Of Spain . The Free Press . NewYork . U.S.A. P. 73 .

(٢) يوسف أشياخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ترجمة / محمد عبد الله عنان — ط — مكتبة الخاتجي — القاهرة — الطبعة الثانية سنة ١٩٩٦ م . ج ١ ص ١٣١ —

" أبناء الغرب الأوروبي " فكان من الطبيعي والحال هذه أن تقتصر أحداث وتداعيات الحرب الصليبية في بلاد الأندلس بالرؤى والأحلام المقدسة ، مثلما حدث مع الصليبيين في الشرق ، غير أن الرؤى والأحلام المقدسة في صليبية بلاد الأندلس كانت أقل بكثير من أحلام ورؤى صليبية بلاد الشام ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن صليبي بلاد الشام كانوا مضطرين للإكثار من هذه الرؤى والمبالغة فيها ، لحث القواعد من أبناء الغرب الأوروبي للتحرك نحو الشرق ، لكن صليبي بلاد الأندلس كانوا مضطرين للدفاع عن مكتسباتهم التي اكتسبوها من حربهم ضد المسلمين ، وكانوا يعيشون مع عدوهم " المسلمين " على أرض واحدة ، فلم تكن الأحلام والرؤى تمثل لهم أكثر من عامل حماسي ديني ، يتم الرجوع إليه في أغلب الأحيان في حالات النصر على المسلمين ، وليس في حالات الأزمات كما هو معتاد عند صليبي الشرق .

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر ، وهي أن أغلب هذه الرؤى والأحلام المقدسة في بلاد الأندلس كانت تدور حول مساعدة القديس يعقوب لهم في معاركهم ضد المسلمين ، ولما نجد رؤيا من هذه الرؤى قد تجلى فيها المسيح أو مريم العذراء — كما يدعون — أو أحد القديسين الآخرين ، ولعل السبب في ذلك أيضاً يرجع إلى أن المسيحيين الأسبان كانوا يعظمون حوارى السيد المسيح ، القديس يعقوب ، أكثر من تعظيمهم للسيد المسيح نفسه ، كذلك يمكن إرجاع السبب في ذلك بأنهم قد ركزوا في أحلامهم ورؤاهم هذه على القديس يعقوب ، كي يثبتوا من أسطورة وجوده ودفنه على أراضيهم ، ويبطلوا حجج المشككين في ذلك .

فلم يذع في عصر من العصور عن ظهور المعجزات مثلما أذيع عنها في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري ، فحيثما أحرز النصر في الحرب نصراً باهراً ظهر القديس ياقب - يعقوب - أو الفارس القديس جورج ، أو السيدة العذراء في المعركة ومعها مدد غير منتظر لأولئك الذين أشرفوا على الهلاك ^(١) . وهو ما سنتعرف عليه في الأوراق التالية .

(١) يوسف أشياخ : تاريخ الأندلس . جـ ٢ ص ٢٢٨ .

رؤيا اكتشاف قبر القديس يعقوب

لعله من الأهمية بمكان قبل الحديث عن الرؤى والأحلام التي حدثت لصليبي بلاد الأندلس ، الحديث عن رؤيا اكتشاف قبر القديس يعقوب في بلاد الأندلس ؛ لأن اكتشاف مقبرته كان نقطة فاصلة ليس في الحروب الصليبية في الأندلس فحسب ، بل في تاريخ بلاد الأندلس بوجه عام ، إذ تحولت أسبابا بموجب هذا الاكتشاف إلى إحدى الأماكن والمزارات المقدسة في العالم المسيحي قاطبة ، ولا يضاهاها في ذلك إلا أورشليم القدس وروما ، وبالتالي صار الدفاع عنها بمثابة الدفاع عن قبر المسيح في أورشليم ، حسب اعتقادهم ، وهنا مكمّن الخطورة في فكرة الحروب الصليبية في بلاد الأندلس عموماً .

تحكي الروايات القديمة " التي يصعب تميز جانبها التاريخي من جانبها الأسطوري " أن القديس جيمس - يعقوب - وهو أحد الحواريين الاثنى عشر للسيد المسيح ، كان قد وفد إلى أسبانيا ليعظ قومها ، فلما استشهد في فلسطين بعد ذلك قام بعض أتباعه المخلصين بوضع جثثاته في تابوت من المرمر فطفأ هذا التابوت بمعجزة على سطح البحر - وكان أحد الملائكة يوجه سيره - إلى أن قذفت به الأمواج على شاطئ جليقية (*) في بلاد الأندلس (١) ، ثم ذهبوا به إلى موقع مدينة الشانت ياقب (سانتياجو) الحالي حيث دفن هناك ، وكان القبر مكاناً

(*) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب . الحموي : معجم البلدان . جـ ٢ ص ١٥٧ .

(١) دوروثي لودر : أسبانيا شعبها وأرضها . ترجمة / طارق فودة . ط - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - لم تذكر سنة الطبع . ص ٦١ .

يحج إليه الناس لعدة سنوات ، لكن عندما ازداد الاضطهاد الروماني للمسيحيين الأسباب أهملت تلك البقعة ونسيها الناس مدة تسعة قرون . (١)

في عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ادعى راهب كان يعيش في تلك المنطقة بأنه رأى نجماً يسطع فوق شجرة بلوط عدة ليال متتالية ، وبذهابه إلى هناك مع أسقف المنطقة ، وجد مقبرة بها رفات ثلاثة أشخاص ، أحدهم مقطوع الرأس ، فافتراضاً أن هذا هو قبر القديس يعقوب (٢) ، وقد علم هذا الراهب مما شاهده من رؤيا ، وما نزل عليه من وحي — كما تروى الأسطورة — أن ما عثر عليه هو رفات سانتياجو — القديس يعقوب — قديس أسبانيا الخاص ، وخوفاً من استيلاء قراصنة البحار — الذين كانوا ينهبون الشاطئ أحياناً — على تلك البقايا الثمينة ، فقد تم نقلها إلى مكان يسمى كومبوستيلا الذي يبعد عن الشاطئ ببضعة أميال ، وهناك شيد الأهالي ضريحاً بسيطاً ليضم رفات القديس التي ما إن انتشر خبر العثور عليها بين الأهالي حتى أقبلت جموع الإسماعيليين إلى كومبوستيلا لتتوجه بالدعاء لعودة المسيحية إلى شبه الجزيرة بأكملها ، وعندما كان الملوك والأمراء يشتبكون في معارك ضد المسلمين كانوا يعبرون عن شكرهم على ما يحققونه من انتصارات بأن يهبوا ضريح قديسهم بعض الذهب والمجوهرات . (٣)

وحمل هذا النبا إلى الملك ألفونسو الثاني (١٧٥ - ٢٢٧ هـ / ٧٩٢ -

(١) د/ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف . ط - دار الكتاب المصري - القاهرة - سنة ١٩٨٥ م . ص ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) دوروثي لودر : أسبانيا شعبها وأرضها . ص ٦١ - ٦٢ .

٨٤٢م) الذى أمر على الفور ببناء كنيسة فوق هذا المكان . وذاعت الأسطورة فى جميع الأنحاء وصدقها الناس دون تردد وبدأت جماعات الحجاج ليس فقط من أسبانيا ولكن من جميع أنحاء العالم النصراني ، تفد لزيارة هذا المكان المقدس الذى أصبح له أهمية تلي أهمية أورشليم وروما ، وسرعان ما نمت مدينة فى هذا المكان وسميت باسم سانتياجو دى كومبوستيلا *Santiago de compostela* وأصبحت تلك المدينة مؤثراً دينياً وسياسياً وتجارياً فى الشمال الغربى المسيحى وكان ملوك أسبانيا من الذكاء بحيث استغلوا هذا الكشف المثير لذلك القبر ، وألهبوا حماس النصارى فى معاركهم ضد المسلمين مما أعطى لهذه المعارك صفة الحرب الصليبية منذ وقت مبكر ^(١) ، وعرف البابا ليو الثالث *Leo III* (٧٩٥ - ٨١٦م / ١٧٩ - ٢٠١هـ) بالحادث وقام بإعلانه فى رسالة له إلى العالم أجمع ، وكان ذلك الأمر كان مجهولاً من البابوية ، ولم تعرف من قبل أن أحد الحواريين العظام يرقد جسده فى أرض أسبانيا . ^(٢)

وراح أهل جليقية يتباهون بأن عظام أحد الحواريين موجودة تحت ثرى أرضهم ، ثم شيد ألفونسو الثانى كنيسة على الضريح ثم جاء بعد ذلك ألفونسو الثالث فبنى كنيسة أخرى تنبئ على سابقته فى روعتها وحسنها ، واكتسبت شهرة فائقة بفضل ما قيل عن المعجزات الجمّة التى جرت بين جذرائها ، وما أوشك القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى على الأفول حتى أصبح ضريح القديس يوحنا كومبوستيلا مزاراً ذائع الشهرة يحج إليه الناس من جميع الجهات

(١) د/ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية . ص ١٠٦ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٠ .

وشتى النواحي (*) ، ويقصده القوم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا بل وأقصى ربوع الشرق (١) ، وكان رمز ذلك القدس هو الصدف ، لذلك كانت الأصداف تشاهد وقد حاكها الأسقف الألماني على رداؤه والملك الفرنسي على معطفه ، والفلاح الإنجليزي على سترته . (٢)

وإذا كانت الجماعات الدينية العسكرية كانت من بنات أفكار صليبي الشرق إلا أنها سرعان ما انتقلت إلى صليبي بلاد الأندلس (**) ، وكان منها الجماعة التى تم تأسيسها على شرف القديس يعقوب فى بلاد الأندلس . ففى سنة ١٢٦١م / ٦٦٠هـ قامت جماعة محاربة هي جماعة القديس ياقب S. Jacob ، وينسب تأسيس هذه الجماعة إلى عدة فرسان من قطاع الطرق كانوا من قبل يخوضون حياة همجية عنيفة ويرتكبون كثيراً من الآثام والجرائم فوعظهم رجال الدين

(*) كان الحج بقصد التكفير عن الذنوب والجرائم يوجه إلى جميع المراكز المسيحية الكبرى مثل : روما حيث قبر القديس بطرس ، ومزار القديس ميخائيل فى مونت جورجاتو - باباطاليا - San Michele At Montegorgano ، والقديس جوب - يعقوب - فى كومبوستيلا فى أسبانيا ، والقدس وبيت لحم فى فلسطين . د/ قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية . ص ٢٣ .

(١) رينهت دوزى : المسلمون فى الأندلس . ترجمة د/ حسن حبشي . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٨م . ج ٢ ص ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢) دوروثى لودر : أسبانيا شعبها وأرضها . ص ٦٢ .

(**) إن الصفة المميزة لهذه الأنظمة العسكرية والتى كانت تخيف المسلمين وتثير قلقهم ، كانت إيمانهم العميق المتعصب وعنادهم الذى يمثل " روح الصليبيين " وكان مذهبهم واضحاً وبسيطاً ، ويتركز فى أن الكنيسة هي الحقيقة ، أما غير المسيحيين فهم كفرة ، وبالتالي فهم الأعداء ، وهم الشر المطلق فى مواجهة الحقيقة ، كما عرفت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . ستانلوى : مفاتيح أورشليم . ص ٨١ .

ونصحوهم بالاستقامة والتوبة ، فتابوا عما ارتكبوه فى شبابهم من إثم ، وقاموا بحماية الحجاج الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب فى موكبوستيلا .^(١)

إن الخطر ليس فى قصة اكتشاف قبر القديس يعقوب ذاتها ، ولكن فى تصديق الناس لها واعتقادهم فيها ، ذلك الاعتقاد الذى أصبح اعتقاداً حربياً لدرجة أنه حرك الرجال لكي يقوموا بأعمال لا يمكن تصديقها^(٢) ، كان هناك اثنان باسم يعقوب ، أحدهما يدعى البار ، وهو الذى طرح من فوق جناح الهيكل وضربه قصار – أى منطف الأقمشة أو مبيضها – حتى الموت بعضى غليظة ، والآخر قطع رأسه^(٣) ، وهو المقصود هنا والذى أكد الكتاب المقدس على أنه قتل بالفعل ، فقد جاء فى أعمال الرسل : فى ذلك الوقت بدأ الملك هيرودس يضطهد بعض أفراد الكنيسة فقتل يعقوب شقيق يوحنا بالسيف " .^(٤)

غير أن المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري والذى عاش فى العصور الأولى لانتشار المسيحية (٢٦٤ – ٣٤٥ م) والذى يعد حجة فى تاريخ الكنيسة قد أنكر القصة السابقة ، فقد استعرض هذا المؤرخ تاريخ القديس يعقوب حتى لحظة استشهاده بأرض فلسطين فى أورشليم وذكر بأنه لما استشهد دفنوه فى الحال بجانب الهيكل ، ولا يزال قبره بجوار الهيكل ، ويقول مؤرخ آخر بأنه من المرجح أن يعقوب لم يفارق أورشليم بل بقى فيها حتى نال الشهادة على يد

(١) يوسف أشياخ : تاريخ الأندلس . ج ٢ ص ١٧ .

(٢) د/ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية . ص ١١٩ .

(٣) يوسابيوس القيصري : تاريخ الكنيسة . ترجمة / مرقس داود . ط – مكتبة المحبة –

القاهرة سنة ١٩٩٩ م . ص ٥٢ .

(٤) أعمال الرسل : ١٢ / ٢ .

هيرودس أجريباس عام ٤٤م ، ولذلك يشك في صحة ما تدعيه الكنيسة الأسبانية من أنه بشرٌ عندهم بالمسيحية كما يشكك صاحب هذه الرواية في معرفة ، أى من هذه الهياكل العظمية الثلاثة – التى تم العثور عليها كما ذكر آنفاً – هو للقديس يعقوب ، لأن عظامها كانت مختلطة ، وموضوعة معاً فى صندوق واحد . (١)

إن ملوك أسبانيا استغلوا العامل الدينى أحسن استغلال لضرب المسلمين وللتخلص من خطر انقسام كان قد بدت ظواهره فى الأفق عندما حاول مطران طليطلة إلبندس Elipandus وصديقه فيلكس Felix أسقف أرجول Argel أن يعيدوا إلى الأذهان فى عام ١٦٤هـ / ٧٨٠م مذهباً لاهوتياً قديماً يقول بأن المسيح كان رجلاً امتلأ بالروح المقدسة وهكذا تبناه الله واختاره ، وهو ما يتناقض مع العقيدة الكاثوليكية التى تؤمن بأن المسيح هو الله ، وقد تسربت آراءه خارج طليطلة فحطمت الوحدة الدينية الأسبانية ، وكانت هناك حاجة إلى من يلم شمل الكنيسة من جديد ، فكانت أسطورة هذا القبر المقدس الذى نادى به أحد الرهبان وصدقه الملك ألفونسو الثانى لغرض فى نفس يعقوب . (٢)

ولعل خير ما يرد به على رؤيا اكتشاف قبر القديس يعقوب ، وبيان زيفها ما ذكره المؤرخ الأسباني المحدث رينهرت دوزى الذى ذكر بأنه لو قدر لهذه الرواية أن تكون فى غير هذا الوقت لكانت موضع جدل وحجاج وإتكار ، أما والعصر عصر إيمان ساذج ، فلم يكن أحد يشكك فيما يقول القسيس ، حتى ولو كان ما يقال مناقضاً للواقع والعقل . (٣)

(١) د/ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية . ص ١٢١ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٧ .

(٣) رينهرت دوزى : المسلمون فى الأندلس . ج ٢ ص ١٣٨ .

الرؤى والأحلام فى حرب الاسترداد فى بلاد الأندلس

عندما كان الأسباني يفكر فى سانتياجو ، فإن قلبه ينبض بالغيرة الوطنية ويتملكه التمس الدينى ، فلم تكن حركة الاسترداد فى حقيقتها سوى حرب صليبية يقود فيها سانتياجو جحافل الأسبان ضد أعدائهم على مر القرون ^(١) ، فكان الأسبان على استعداد للدفاع عن القديس يعقوب فى سانتياجو ، ضد أى عدو حتى ولو كان هذا العدو هم إخوانهم فى الدين ، ففي سنة ٥٨٥هـ — / ١١٨٩م قدم أسطول من ستين سفينة تحمل جيشاً من الصليبيين قوامه عشرة آلاف مقاتل من ولايات الراين الألمانية واللورين ، إلى شواطئ جليقية ، فى طريقهم إلى المشرق ، ورسا على مقربة من شنت ياقب ، ونزل كثيرون ليقوموا بزيارة قبر هذا القديس فى كومبوستيلا ، ولكن أهل كومبوستيلا توجسوا شراً مما شاع حول هؤلاء الأجانب ، وكونهم قدموا لاغتصاب رأس القديس ياقب ، وربما أيضاً لنهب الذخائر التى كدست فى قبره ، فتقلدوا أسلحتهم ، وحالوا بالقوة دون دخول الصليبيين إلى المدينة ، ف وقعت بين الفريقين معركة سال فيها الدم من الجانبين ، وعاد الصليبيون على أثر ذلك إلى سفنهم . ^(٢)

تعتبر موقعة كوفادونجا عام ٧١٨م / ١٠٠هـ هي بداية حركة استرداد الأسبان لبلادهم من أيدي المسلمين ، إذ بدأت أسبانيا المسيحية فى النمو من جديد ببطء وعزم ومشقة ، وفى هذه الموقعة كان من الصعب أن يصدق الإنسان أن تتغلب جماعات شبه همجية تفتقر إلى السلاح على قوات المسلمين المتفوقة ،

(١) دوروثى لودر : أسبانيا شعبها وأرضها . ص ٦١ .

(٢) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس . ج ٢ ص ٧٩ .

لكن أحد الأسباب التي يعزى إليها نجاحهم هو إيمانهم بأن بطلاً من أصحاب المعجزات يناصرهم في حربهم من أجل المسيحية ، وهذا البطل هو القديس يعقوب St. James الذي يعرف في أسبانيا باسم سانتياجو دي كومبوستيلا ، والذي أصبح فيما بعد القديس الحامي للدولة الأسبانية ومصدر الكثير من شجاعة مواطنيها ، وقد أقسم أكثر من ملك أو قائد مسيحي بأنهم رأوا سانتياجو رأى العين - قبل المعركة أو في معمتها - ممتطياً جواداً أبيض ملوحاً بسيف براق .^(١)

وبعد أن تم اكتشاف قبر القديس يعقوب - كما ذكر آنفاً - كان من الطبيعي أن يتم إقام القديس يعقوب وذكر رؤياه في أغلب المعارك التي دارت بين الصليبيين الأسبان ومسلمي الأندلس ، فقد ادعت المصادر النصرانية أنه في عام ٢٣٠هـ / ٨٤٤م حدثت معركة بين المسلمين والصليبيين الأسبان سمّتها المصادر الأسبانية باسم كلافو Clavigo وفيها تم النصر لملك ردمير الأول ابن الملك ألفونسو الثاني ، بفضل القديس يعقوب ، لكن لم يشر إلى تلك المعركة مصدر عربي واحد من المصادر القديمة .^(٢)

وقد ذكرت المصادر الأسبانية أن سبب انتصار الملك ردمير الأول في المعركة السالفة الذكر ، أنه رأى أثناء الليل القديس يعقوب ووعده بالنصر في المعركة ضد المسلمين ، وأنه كان يمتطي جواداً أبيض ويحمل علماً أبيض ، وصليباً أحمر ، وأعلن له القديس يعقوب أن الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية في

(١) دوروثي لودر : أسبانيا شعبها وأرضها . ص ٦٠ - ٦١ .

(٢) د/ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية . ص ١٢١ .

أسبانيا مسئوليته الشخصية ، وأنه حضر ليقود الأسبان فى ميدان المعركة ، ويذهب الخيال بالملك حتى يقول إن القديس بين له كيف ينظم قواته ، وقد أذاع ردمير الأول تلك الرؤيا على جنوده وكانتوا منهزمين فى اليوم السابق ، فاتدفعوا وألقوا بأنفسهم على المسلمين مهللين بأعلى صوتهم " Eantiago Cierra Espana " أى أن القديس يعقوب هو حامي أسبانيا ، وهاجموا المسلمين فى قوة ففر هؤلاء تاركين الميدان غاصاً بجثث قتلهم . (١)

وبغض النظر عن أن المصادر العربية قد ذكرت هذه الرواية أم لم تذكرها فلاشك أن الداعي إلى اختراعها — كما هو معتاد عند صليبي الشرق — هو رفع درجة الحماسة الدينية عند جموع الصليبيين الأسبان ، لأنه تم أذاعت هذه الرؤيا عليهم كما ذكر آنفاً ، وإمعاناً فى تصديقها من هذه الجموع الساذجة ، كان المرءى فيها القديس يعقوب ، والراءى هو الملك ذاته ، وذلك كي لا يكون هناك أى مجال للطعن فى صحتها من أحد .

ومن أكبر وأشهر الرؤى التى تم إذاعتها بين صليبي الأندلس ، والتى مازالت آثارها باقية حتى اليوم ما ذكرته المصادر البرتغالية عن موقعة أوريك (*) سنة ١١٣٩م / ٥٣٤هـ ، وذلك دون أن تذكر عنها المصادر العربية أى حرف أيضاً .

(١) د/ رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية . ص ١٢٢ .

(*) أوريك : اسمه الآن " كابيزا دى رايس " وهي على ضفة نهر التاجه اليسرى ، وعلى مقربة من ملتقى نهر كوبريس بنهر ترجيس — فى البرتغال حالياً — يوسف أشياخ : تاريخ الأندلس . ج ١ ص ٢٥٧ .

ذكر فى إحدى الوثائق البرتغالية بأن البرتغاليين اشتبكوا فى مروج "أوريك" مع إسماعيل وأربعة آخرين من ملوك المغاربة وجيشهم الذى لا يحصى ، فخبث شجاعتهم وينسوا من النصر ، ولم يفكروا إلا فى إنقاذ أنفسهم بالفرار ، ولكن المسيح نفسه ظهر بالليل مصلوباً ، للكونت ألفونسو هنريكيز (*) ، وأمره أن يتدرب بالشجاعة فى القتال ، ووعده بالنصر فى تلك المعركة وكل معركة أخرى يخوضها ، كما وعده بأن يضع المملكة التى تقوم على أثر هذه الموقعة تحت حمايته ورحمته ، وأمره بأن يجعل شعارها مكوناً من جروح المسيح الخمسة ، والقطع الفضة الثلاثين التى قبضها يهوذا أجراً لخيانة المسيح ... وقد قص ألفونسو فى اليوم التالي على جيشه نبأ هذه الرؤيا ، فاشتدت عزائم البرتغاليين وسرعان ما وضعوا على رأس الأمير تاجاً من الأغصان الخضراء ونادوا به ملكاً للبرتغال ، وفاضت نفوسهم رغبة فى محاربة المسلمين ، وأحرزوا هذا النصر الباهر فى " أوريك " ثم أمر الملك أن يكون شعار الدروع البرتغالية (**) خمسة دروع صغيرة تمثل جراح المسيح ، توضع فى شكل صليب ، وينقش فى كل منها ثلاثين نقطة من الفضة ، ويعطو الصليب رمز لشعبان موسى — عليه السلام — ولا تذكر الروايات الأسبانية أيضاً شيئاً عن هذه الموقعة ، ويبدو أن صحة هذه

(*) ألفونسو هنريكيز : تعرفه الرواية العربية بابن الرقيق ، وكلمة الرقيق هذه إنما هي تحريف لاسم هنريكيز أو أنريكو أى هنرى ، وهو اسم أبيه ، ثم هي تعرفه بأنه صاحب قلمرية ، أعنى صاحب البرتغال ، لأن قلمرية كانت يومئذ عاصمة البرتغال . يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس . جـ ١ ص ٢٥٦ . حاشية رقم (١) .

(**) لا تزال هذه الدروع الخمسة المرقومة فى شكل الصليب شعار العلم البرتغالي حتى يومنا . يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس . جـ ١ ص ٢٦٠ . حاشية رقم (١) .

الوثيقة - التي ذكرت موقعة أوريك - أمر مشكوك فيه جداً ، وبفرض صحتها فإن ما ورد فيها من الوقائع لا دليل على صحته ، ولا يوجد ما يؤيدها .^(١)

وكما أن الصليبيين في الشرق قد ذكروا عبر دروب أحلامهم ورؤياهم بأن جيوش الملائكة سكان السماء كانت تقاتل معهم - كما ذكر آنفاً في فك الحصار الإسلامي عن أنطاكية في الحملة الصليبية الأولى وغيرها - كذلك لم يتوان صليبيو بلاد الأندلس عن ذكر ذلك أيضاً ، وعن طريق رؤياهم أيضاً وأحلامهم المقدسة ، وإن كانت بعض هذه الرؤى لم تغفل دور القديس يعقوب في هذه المؤازرة ، فذكرت بأن بعض هذه الجيوش كانت تحت قيادة حامي أسبانيا العظيم القديس يعقوب .

فقد أنشأ الملك ألفونسو هنريكز ملك البرتغال في سنة ١١٦٧م / ٥٦٣هـ جماعة سميت بجماعة القديس ميخائيل ذي الجناح St. Michael Delala ، ويزعمون في سبب هذه التسمية أنه رأى أثناء موقعة شنترين نراع يتلذذ سيفاً فظنوه نراع قديس ، ولما كان ألفونسو قد أحرز في هذه الموقعة ظفراً باهراً ، ولم ينج من الهلاك فيها إلا بمعجزة ، فقد قيل إنه أنشأ لهذا السبب جماعة من الفرسان تنطوي تحت اسم الملك ميخائيل^(٢) . ونسب ألفونسو الثاني نصره على المسلمين في سنة ١٢١٧م / ٦١٤هـ ، إلى معونة فرقة من الملائكة في صفة الفرسان كانوا يقاتلون إلى جانبهم في ثياب بيض^(٣) ، ولما فتح

(١) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس . ج ١ ص ٢٥٨ - ٢٦٠ .

(٢) المرجع السابق : ج ٢ ص ١٨ .

(٣) المرجع السابق : ج ٢ ص ٢٠٥ .

ألفونسو التاسع ملك ليون ، مدينة ماردة (*) من المسلمين في سنة ٦٢٧هـ — / ١٢٢٩م ، كان هذا النصر مصار دهشة حتى أن بعض الروايات الدينية المعاصرة نسبته إلى عون شنت ياغب " القديس يعقوب " وفرقة من الملائكة . (١)

هذا وحفاظاً على الحيادية وعلى الموضوعية التاريخية ، يجب أن نذكر بأن الرؤى التي كانت تحدث عن قتال الملائكة في صفوف المقاتلين لموازرتهم ، لم تتوقف على الجانب الصليبي في بلاد الأندلس فقط ، بل كانت هناك بعض الرؤى من هذا القبيل في الجانب الإسلامي أيضاً .

ففي صباح ٩ شعبان سنة ٥٩١هـ / الموافق ١٩ يولييه سنة ١١٩٥م كانت موقعة الأراك الشهيرة ، فأذاع يعقوب بن تاشفين بين سائر الجند خبر حلم رآه في الليلة السابقة ، حيث غلبته عيناه فنام في مصلاه قليلاً ، ثم انتبه فرحاً مستبشراً ، فبعث إلى أشياخ الموحدين والفقهاء فدخلوا عليه فقال لهم : إنما بعثت لكم في هذا الوقت لأبشركم بما بشرت به من نصر الله تعالى في نومي هذه الساعة المباركة ، بينما أنا راعٍ في مصلاي إذ غلبتني عياني ، فرأيت في نومي كأن باباً قد فتح في السماء ، ونزل منه فارس على فرس أبيض حسن الوجه والرائحة ، وبيده راية خضراء منشورة قد سدت الأفق من عظمها ، فسلم على فقلت له : من أنت يرحمك الله ؟ فقال : أنا ملك من ملائكة السماء السابعة ، جئتك لأبشرك بالفتح من رب العالمين لك ولعصابتك المجاهدين ، الذين أتوا بحت

(*) ماردة : كورة واسعة من نواحي الأندلس — في أسبانيا حالياً — . الحموي : معجم البلدان .

جـ ٥ ص ٣٨ .

(١) يوشف أشباخ : تاريخ الأندلس . جـ ٢ ص ١٤٧ .

رايتك في الشهادة راغبين ^(١) . لكن أين كانت حقيقة هذه الرؤيا ، فإنه لا غبار عليها ، إذ أنها تختلف عن رؤى قتال الملائكة التي ذكرها صليبيو الأندلس في شئ هام ، فهي مجرد بشارة بالنصر على الأعداء ، وقد كان ، أما خطورة رؤى صليبي بلاد الأندلس ، فتكمن في مشاهدتهم الملائكة وهم يقاتلون بين صفوفهم بالفعل ، وهذا هو مصدر الشك والريبة فيها .

في سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م كانت هزيمة المسلمين في موقعة العقاب وفنى بها أغلب عساكر المغرب والأندلس ، فذهبت قوة المسلمين بالأندلس من تلك الهزيمة ، ولم تنتصر لهم راية بها ، فاستطال العدو عليها ، فملك معاقلها واستحوذ على أكثر بلادها حتى كاد أن يملكها . ^(٢)

وكان للرؤى والأحلام المقدسة نصيب كبير في هذه الموقعة ، فقد ذكر أنه حدث قبيل المعركة بقليل أن ظهر في السماء صليب كبير شديد اللمعان بشيراً بالنصر المحقق ، بيد أن هذه المعجزة لم يرد ذكرها في رواية المطرانين الذين شهدا الموقعة ، ولا في رواية الملك ألفونسو ، بل لم يرد ذكرها في النسخ الخطية الوثيقة للرواية الأسبانية العامة ، فمن المدهش إذاً أن يرددها كثير من المؤرخين الأسبان ، ويعتقدون في صحتها . ^(٣)

كانت هذه هي أهم الرؤى والأحلام المقدسة التي نسجها صليبيو بلاد

(١) ابن زرع الفاسي : الأيس المطرب بروض القرطاس . راجعه / عبد الوهاب بن منصور ط - المطبعة الملكية - الرباط - المغرب - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٩م . ص ٢٩٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ٣١٥ ، ٣٥٧ .

(٣) يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس . ج ٢ ص ١٢٣ .

الأندلس ، والتي كانت تقوم على شخصية القديس يعقوب — أو شانت ياقب كما كانوا يسمونه — ثم قاموا بنشرها وإذاعتها بين أبناء جنسهم ، وبما أن العصر كان عصر الإيمان ، والتعصب الديني فقد لاقى مثل هذه الرؤى والسخافات قبولا عاماً عند الكثيرين من العامة والخاصة ، فأنت بثمارها ، وعملت على تحقيق مآرب الكنسية الغربية ، التي كانت تبغي من وراء الحركة الصليبية في الشرق والغرب ، كتلكة العالم .

الخاتمة

من خلال ما ذكر آنفاً عن الرؤى والأحلام المقدسة عصر الحروب الصليبية يمكن أن نخلص بأهم النتائج الآتية :

١- أظهرت الدراسة أن الرؤى والأحلام المقدسة التى تمت مشاهدتها فى المنام وفى اليقظة ، سواء كانت كاذبة أم صادقة ، قد تم توظيفها على نطاق واسع فى الدعوة للحروب الصليبية بوجه عام .

٢- تبين أن الرؤى والأحلام المقدسة لم تكن وليدة عصر الحركة الصليبية ، بل كانت متجذرة فى المجتمع الأوروبي منذ العصور الوثنية البكرة ، بل إن الأحلام المقدسة كانت من العوامل الأساسية فى انتشار المسيحية فى أوروبا .

٣- وضح من البحث أن عصر الحروب الصليبية كان عصر الرؤى والأحلام فى الغرب الأوروبي ، حيث كان الجهل ييسر رداءه على معظم فئات المجتمع الأوروبي ، وكان الناس يميلون إلى تصديق كل ما يقال ، ولم يكن هناك حاجز بين الخيال والواقع .

٤- أظهرت الدراسة أن حلم الحرب المقدسة التى تم اكتشافها فى مدينة أنطاكية فى أحداث الحملة الصليبية الأولى ، كان حلماً مختلفاً ، وذلك للخروج من مأزق الحصار الذى كان يعاني منه الصليبيون ، إذ لم يكن أمامهم مفر سوى الخروج للقتال .

٥- كشفت الدراسة عن أن الرؤى والأحلام المقدسة ، كانت عادة الصليبيين طوال فترة الحركة الصليبية في الشرق ، فعندما كانوا يتعرضون للمعضلات ، يلجأون للعصا السحرية المتمثلة في هذه الرؤى ، للخروج من أي مأزق .

٦- بينت الدراسة زيف الإدعاء القائل بنزول النار المقدسة على الضريح المقدس في فلسطين ، وأنها كانت مجرد لعبة زائفة يتم من خلالها التأثير في مشاعر المسيحيين الدينية ، وأن مثل هذه الألعاب الزائفة من الأشياء المعتادة في الكنائس ، وما زالت تتم حتى الآن من خلال استخدام التقنيات الحديثة في عمل ما يعرف بقصص التجلي للسيدة مريم العذراء في الكثير من الكنائس في المنطقة العربية بصفة خاصة .

٧- كشفت الدراسة عن أن مذبحة الأسرى المسلمين التي ارتكبتها ريتشارد قلب الأسد في الأراضي المقدسة سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م لم يكن السبب فيها هو تأخر صلاح الدين الأيوبي في وفائه بالتزاماته تجاه ريتشارد لكن السبب الحقيقي من وراء تنفيذها هو رغبة ريتشارد في تحقيق نبوءة الكاهن يواقيم الذي أخبره قبل انطلاقه للشرق بأن هناك مذبحة كبرى يجب أن تحدث في الشرق حتى يتمكن من الانتصار على صلاح الدين ويسترد أورشليم لحوزة الصليبيين .

٨- أوضحت الدراسة أن الرؤى والأحلام المقدسة لم تقتصر على صليبي الشرق ، بل مارسها صليبو الغرب في الأندلس في صراعهم مع المسلمين ، غير أن أحلام الصليبيين في الأندلس كانت تظهر عند تحقيقهم نجاحاً على المسلمين ، وليس عند الصعاب كما هو حال الصليبيين في الشرق .

٩- تبين أنه بعد سقوط عكا لم يكن باستطاعة سكان غرب أوروبا أن يوجهوا إلى الشرق حملة شعوب مثل الحملة الصليبية الأولى ، إذ أنهم لم يستجيبوا مطلقاً لما قد يقوم به أمثال بطرس الناسك من دعوى مستندة على النبوءات والأحلام المقدسة .

المصادر والمراجع

— القرآن الكريم .

— الكتاب المقدس .

أولاً : المصادر العربية والمعرية

ابن الأثير : علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير . ت ٦٣٠هـ —

١— الكامل في التاريخ . ط — دار صادر — بيروت — سنة ١٩٧٩ م .

بادربورن : أوليفر أوف بادربورن .

٢— تاريخ دمياط . ترجمة د/ سهيل زكار . نشر ضمن الموسوعة الشاملة في

تاريخ الحروب الصليبية . ط — دار الفكر — دمشق — لم تذكر سنة الطبع

بورشارد : بورشارد من جبل صهيون .

٣— وصف الأرض المقدسة . ترجمة د/ سعيد البيشاوي . ط — دار الشروق

— عمان — الأردن — الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥ م .

ابن تغري بردي : جمال الدين يوسف بن تغري بردي . ت ٨٧٤هـ —

٤— النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ط — وزارة الثقافة والإرشاد —

القاهرة — لم تذكر سنة الطبع .

توديبود : بطرس توديبود

٥— تاريخ الرحلة إلى القدس . ترجمة د/ حسين عطية . ط — دار المعرفة

الجامعية — الإسكندرية — الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨ م .

ثيودريش : ثيودريش . القرن ١٢هـ / ١٢م

٦- وصف الأماكن المقدسة في فلسطين . ترجمة د/ سعيد البيشاوي .

ط - دار الشروق - عمان - الأردن - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣م.

ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي بن الجوزي . ت ٥٩٧هـ

٧- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك . تحقيق / محمد عبد القادر عطا . ط -

دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م .

الحموي : ياقوت بن عبد الله الحموي . ت ٦٢٦هـ

٨- معجم البلدان . ط - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٧٩م .

ريموندا جيل : ريموندا جيل .

٩- تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس . ترجمة د/ حسين عطية . ط - دار

المعرفة الجامعية - الإسكندرية . الطبعة الأولى ١٩٩٠م .

الراهب : دانيال الراهب

١٠- رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديار المقدسة . ترجمة

د/ سعيد البيشاوي . ط - دار الشروق - عمان - الأردن . الطبعة

الأولى سنة ١٩٩٢م .

سايلوف : سايلوف

١١- وصف رحلة الحاج سايلوف لبيت المقدس والأراضي المقدسة . ترجمة

د/ سعيد البيشاوي . ط - دار الشروق - عمان - الأردن - الطبعة

الأولى سنة ١٩٩٧م .

ابن سيرين : ابن سيرين .

١٢- تفسير الأحلام الكبير . ط - دار ابن خلدون - الإسكندرية - لم تذكر سنة الطبع .

الشارتري : فوشيه الشارتري . ت ١١٢٧هـ -

١٣- تاريخ الحملة إلى القدس . ترجمة د/ زياد العسلي . ط - دار الشروق - عمان - الأردن - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٠ م .

الشهابي : حيدر أحمد الشهابي

١٤- تاريخ الأمير حيدر الشهابي . علق على حواشيه د/ مارون رعد . ط - دار الجبل - بيروت ١٩٩٣ م .

الصوري : وليم الصوري

١٥- الحروب الصليبية . ترجمة د/ حسن حبشي . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩١ م .

العسقلاني : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . ت ٨٥٢هـ -

١٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري . تصحيح / محمد فؤاد عبد الباقي . ط - دار المعرفة - بيروت - لم تذكر سنة الطبع .

ابن العميد : المكين جرجس بن العميد . ت ٦٧٢هـ -

١٧- تاريخ المسلمين من صاحب الشريعة أبو القاسم محمد إلى الدولة الأتابكية . ط - لندن - هولندا سنة ١٦٤٥ م .

الفاسى : علي بن أبى زرع الفاسى

- ١٨- الأليس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . راجعه / عبد الوهاب بنمنصور . ط - المطبعة الملكية - الرباط - المغرب - الطبعة الثانية ١٩٩٩ م .

فريزنغ : أوتو أسقف فريزنغ .

- ١٩- المدينتان . ترجمة د/ سهيل زكار - نشر ضمن الموسوعة الشاملة ط - دار الفكر - دمشق - لم تذكر سنة الطبع .

فلهاردون : جيوفرى فلهاردون .

- ٢٠- فتح القسطنطينية . ترجمة د/ حسن حبشي . ط - جامعة الملك عبد العزيز - السعودية - الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ .

فورزبورغ : يوحنا فورزبورغ

- ٢١- وصف الأراضي المقدسة فى فلسطين . ترجمة د/ سعيد البيشاوي . ط - دار الشروق - عمان - الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧ م .

القيصرى : يوسا بيوس القيصرى . ت ٣٤٥ م

- ٢٢- تاريخ الكنسية . ترجمة / مرقس داود . ط - مكتبة المحبة - القاهرة سنة ١٩٩٩ م .

كلارى : روبرت دى كلارى

- ٢٣- سقوط القسطنطينية . ترجمة د/ سهيل زكار . نشر ضمن الموسوعة الشاملة . ط - دار الفكر - دمشق - لم تذكر سنة الطبع .

كومنينا : أنا كومنينا . ت ١١٤٨م

٢٤- الأكسياد . ترجمة د/ حسن حبشي . ط - المجلس الأعلى للثقافة -
القاهرة - الطبعة الأولى ٢٠٠٤م .

كيناموس : يوحنا كيناموس

٢٥- أعمال يوحنا وماتويل كومينوس . ترجمة د/ سهيل زكار . نشر ضمن
الموسوعة الشاملة . ط - دار الفكر - دمشق - لم تذكر سنة الطبع .

مجهول : مجهول

٢٦- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس . المعروف بالجستا . ترجمة د/
حسن حبشي . ط - دار الفكر العربي - بيروت - لم تذكر سنة الطبع .

مجهول : مجهول

٢٧- الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين ورينشارد) . ترجمة د/ حسن
حبشي . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠م .

مجهول : مجهول

٢٨- المؤرخ الرهاوي المجهول . تحقيق د/ سهيل زكار . نشر ضمن
الموسوعة الشاملة . ط - دار الفكر - دمشق - لم تذكر سنة الطبع .

ابن منظور : محمد بن مكرم بن منظور . ت ٧١١هـ -

٢٩- لسان العرب . ط - دار إحياء التراث العربي - بيروت - الطبعة الثانية
١٩٩٧م .

ويندوفر : روجر أوف ويندوفر . ت ١٢٣٧م

- ٣٠- ورود التاريخ . ترجمة د/ سهيل زكار . نشر ضمن الموسوعة الشاملة .
ط - دار الفكر - دمشق - لم تذكر سنة الطبع .

ثانياً : المراجع العربية والمصرية

أثناسيوس : أثناسيوس راهب من الكنيسة القبطية

- ١- الكنائس الشرقية وأوطانها . ط - دار نوبار - القاهرة - الطبعة الأولى
سنة ٢٠٠٥ م .

أرمسترنج : كارين أرمسترنج

- ٢- القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث . ترجمة د/ فاطمة نصر . ط - الهيئة
المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٩ م .

إسماعيل : محمد بكر إسماعيل (دكتور)

- ٣- تفسير الأحلام فى ضوء الإسلام . ط - دار المنار - القاهرة - الطبعة
الأولى سنة ٢٠٠٢ م .

أشباح : يوسف أشباح

- ٤- تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين . ترجمة / محمد عبدالله
عنان . ط - مكتبة الخاتجي - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٩٦ م .

إمام : إمام عبد الفتاح إمام (دكتور)

- ٥- معجم ديانات وأساطير العالم . ط - مكتبة مدبولي - القاهرة - لم تذكر
سنة الطبع .

باركر : أرنست باركر

٦- الحروب الصليبية . ترجمة د/ السيد الباز العريني . ط - دار النهضة العربية - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٦٧ م .

بارنز : هاري إلمر بارنز

٧- تاريخ الكتابة التاريخية . ترجمة د/ محمد عبد الرحمن برج . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٤ م .

بالار : ميشيل بالار

٨- الحملات الصليبية والشرق اللاتيني . ترجمة / بشير السباعي . ط - دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م .

براور : يوشع براور

٩- الإستيطان الصليبي في فلسطين . ترجمة د/ عبد الحافظ البنا . ط - دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى ٢٠٠١ م .

١٠- عالم الصليبيين . ترجمة د/ قاسم عبده قاسم . ط - دار المعارف - الطبعة الأولى ١٩٨١ م .

برجاوي : سعيد أحمد برجاوي

١١- الحروب الصليبية في المشرق . ط - دار الآفاق الجديدة - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٤ م .

بيومي : محمد أحمد بيومي (دكتور)

١٢- علم الاجتماع الديني . ط - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية سنة ١٩٩٦ م .

الجنزوري : عليّة عبد السميع الجنزوري (دكتورة)

١٣- الحروب الصليبية . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩ م .

دوزى : رينهت دوزى

١٤- المسلمون فى الأندلس . ترجمة د/ حسن حبشي . ط - الهيئة المصرية

العامة للكتاب سنة ١٩٩٨ م .

رستم : أسد رستم (دكتور)

١٥- كنسية مدينة الله أنطاكية العظمى . ط - المكتبة البولسية - بيروت سنة

١٩٨٨ م .

رنسيان : ستيفن رنسيان

١٦- تاريخ الحروب الصليبية . ترجمة د/ السيد الباز العريني . ط - دار

الثقافة - بيروت سنة ١٩٩٧ م .

١٧- الحضارة البيزنطية . ترجمة / عبد العزيز جاويد . ط - الهيئة المصرية

العامة للكتاب سنة ١٩٩٧ م .

زكار : سهيل زكار (دكتور)

١٨- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية . الموسوعة الشاملة . ط - دار

الفكر - دمشق - لم تذكر سنة الطبع .

ستانبولى : ريمون ستانبولى

١٩- مفاتيح أورشليم القدس . ترجمة د/ عايدة الباجورى . ط - المجلس

الأعلى للثقافة - القاهرة - الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م .

سمالى : بيريل سمالى

- ٢٠- المؤرخون فى العصور الوسطى . ترجمة د/ قاسم عبده قاسم .
ط - دار المعارف - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤ م .

سميث : جوناثان ريلى سميث

- ٢١- تاريخ أوكسفورد للحروب الصليبية . ترجمة د/ قاسم عبده قاسم . ط -
دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى ٢٠٠٧ م .
٢٢- الحملة الصليبية الأولى . ترجمة د/ محمد فتحي الشاعر . ط - الهيئة
المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩ م .

الشرقاوي : محمود الشرقاوي

- ٢٣- التفسير الديني للتاريخ . ط - دار الشعب - القاهرة - لم تذكر سنة
الطبع .

عاشور : سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور)

- ٢٤- الحركة الصليبية . ط - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - الطبعة
التاسعة سنة ٢٠١٠ م .

عامر : سامية عامر (دكتورة)

- ٢٥- الصليبيون فى شمال إفريقيا . ط - دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى
سنة ٢٠٠٢ م .

عبد الحليم : رجب عبد الحليم (دكتور)

- ٢٦- العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسياتيا النصرانية . ط - دار الكتاب
المصري - القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

عمران : محمود سعيد عمران (دكتور)

- ٢٧- حضارة أوروبا فى العصور الوسطى . ط - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية سنة ١٩٩٨ م .

عوض : محمد مؤنس عوض (دكتور)

- ٢٨- الحروب الصليبية . دراسات فى التاريخ المقارن . ط - دار العالم العربي - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠ م .
- ٢٩- الحروب الصليبية . السياسة . المياة . العقيدة . ط - دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠١ م .
- ٣٠- العلاقات بين الشرق والغرب " العصور الوسطى " . ط - دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣ م .

فشر : م . أ . ل . فشر

- ٣١- تاريخ أوروبا العصور الوسطى . ترجمة / محمد مصطفى زيادة . ط - دار المعارف - الطبعة السادسة سنة ١٩٧٦ م .

الفغالي : الخورى بولس الفغالي

- ٣٢- المحيط الجامع فى الكتاب المقدس والشرق القديم . ط - المكتبة البولسية - بيروت - الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٩ م .

قاسم : قاسم عبده قاسم (دكتور)

- ٣٣- الحملة الصليبية الأولى نصوص ووثائق تاريخية . ط - دار عين - القاهرة سنة ٢٠٠١ م .

٣٤- الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية . ط - دار عين - القاهرة
الطبعة الأولى ١٩٩٩ م .

٣٥- فى تطور الفكر التاريخي . ط - دار عين - القاهرة - الطبعة الأولى
سنة ٢٠٠٨ م .

٣٦- ماهية الحروب الصليبية . ط - المجلس الأعلى للثقافة - الكويت سنة
١٩٩٠ م .

كاتتور : نورمان كانتور

٣٧- التاريخ الوسيط . ترجمة د/ قاسم عبده قاسم . ط - دار عين - القاهرة
سنة ٢٠٠٩ م .

كيرنز : إيرل كيرنز

٣٨- المسيحية عبر العصور . ترجمة / عاطف برنابا . ط - دار نوبار -
القاهرة سنة ١٩٩٢ م .

لودر : دوروثى لودر

٣٩- أسبانيا شعبها وأرضها . ترجمة / طارق فودة . ط - مكتبة النهضة
المصرية - القاهرة - لم تذكر سنة الطبع .

ماستناك : توماش ماستناك

٤٠- السلام الصليبي . ترجمة / بشير السباعي . ط - المجلس الأعلى للثقافة
- القاهرة - الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م .

مصطفى : فاروق أحمد مصطفى (دكتور)

٤١- الموالد دراسة للعادات والتقاليد الشعبية فى مصر . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب - الطبعة الثانية سنة ١٩٨١م .

موسى : تيسير بن موسى (دكتور)

٤٢- نظرة عربية على غزوات الإفرنج . ط - الدار العربية للكتاب - بيروت - لم تذكر سنة الطبع .

نخبة من العلماء : نخبة من العلماء

٤٣- دائرة المعارف الإسلامية . ط - دار المعرفة - بيروت - لم تذكر سنة الطبع .

نيكول : دونالد نيكول

٤٤- معجم التراجم البيزنطية . ترجمة د/ حسن حبشي . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٣م .

اليسوعى : صبحى حموى اليسوعى

٤٥- معجم الإيمان المسيحى . ط - دار المشرق - بيروت - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٨م .

ثالثاً : المصادر والمراجع الأجنبية

Aix :D'Albert D'Aix

- Chronique D'Albert DAix .cours pratique de M . le professeur M . Philippson university of British Columbia .library .1888.due date .

Burke : Gina Kathleen Burke .

- The justification for relic thefts in the middle ages .Miami university Oxford , Ohio .2002.

Burr : George Lincoln Burr .

- The year 1000 and the antecedents of the crusades . the American historical review , vol .6, no3 (apr .,1901) .

Chapman : Charles .E .Chapman .

- A history of Spain .the free press .New York .U.S.A.

Duncan : Robert John Duncan .

- The power of a pilgrimage to the holy land .Drew university Madison , New Jersey. 2001.

Krey : August .C . Krey.

- The first crusade : the accounts of eyewitnesses and participants Princeton .1921 .

The Monk : Robert the Monk .

- History of the first crusade .historia Iherosolimitana translation 11. Carol Sweeten ham . Ashgate publishing England .2006 .

Munro : Dana . C . Munro .

- The children's crusade. The American historical review ,vol .19 , no ,3 (apr ., 1914) .

- The speech of Urban II . at Clermont ,1095 .the American historical review , vol . 11 , no 2 (jan ., 1906) .

Resor : Cynthia Williams Resor .

- Richard I takes the cross : the twelfth century culture of crusade . college of art and sciences. University of Kentucky .U . S . A . 2002 .

**New Catholic : new Catholic encyclopedia . Washington , D.C
.second edition .U.S.A .**

رابعاً : الدوريات والندوات

إبداع : مجلة شهرية تصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ندوة : ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط . تحرير د/ قاسم عبده قاسم . ط - دار
المعارف سنة ١٩٨٤ م .

ندوة : ندوة اللجنة المصرية للتضامن بالقاهرة يونيو ١٩٨٧ م . ٨٠٠ عام على حطين
صلاح الدين والعزل العربي الموحد . ط - دار الشروق - القاهرة - الطبعة
الأولى سنة ١٩٨٩ م .